شياطين بانكوك

"جحيم الدارك ويب"

https://bbibliomania.com/

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
ببلومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
Insta:books.bibliomania/
Books ـ ببلومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

شياطين بانكوك

"جحيم الدارك ويب"

عبد الرزاق طواهرية

ببلومانيا
للنشر والتوزيع

ببلومانيا للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: شياطين بانكوك

اسم المؤلف: عبد الرزاق طواهرية

تصميم الغلاف: عبد الرزاق طواهرية

تدقيق لغوي: لونيس بلال

رقم الإيداع: 2017/21685

الترقيم الدولي (ISBN) : 2 - 978-9931-663-49

الناشر /دار ببلومانيا للنشر والتوزيع

المدير العام / جمال سليمان

تليفون /00201065534541- 00201208868826

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

الموقع الإلكتروني: https://bbibliomania.com/

الطبعة الرابعة 1438 هـ - 2018 م

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع

محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ

أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

تنويه: ما ورد في هذا الكتاب يعبر فقط عن وجهة نظر الكاتب

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى والديَّ العزيزين.

إلى إخوتي وأسرتي كافة، دون ان أنسى

أصدقائي وزملائي في العمل.

وإلى كل روح طاهرة تقرأ هذه الأسطر.

عزيزي القارئ..

أدعوك اليوم وكل يوم يصادف تصفحك هذا الكتاب، أن تطفئ الأنوار، تستلقي على سريرك وتغلق الباب. عزيزي الفضولي.. مادام غداؤك يقدم على مائدة الانترنت الظاهري The Surface Web، فأنا أدعوك الليلة لمأدبة عشاء فاخر على مائدة الانترنت العميق The Deep Web، لن أعاملك كضيف بعد الآن، سأشبع فضولك وأناولك مفتاح غرفتي لتشاركني رحلتي.. لن ترفض صحيح!

عليك القبول به إن كان قلبك شغوفاً بِكشف المستور، إِن فتحت غرفتي ستجد غايتك فيها وسَتُدرك حقيقتها أيضاً.. دعني أطلُب منك طلباً صغيراً.. ابحث في اليوتيوبْ عن معزوفة الموسيقار الشهير تشايكوفسكي، والتي تحمل عنوان: Dance of the Sugar-Plum Fairy، حاول الآن أن تُشغلها.. ولا تنسَ أخذ نفس عميق.. تسحب فيه وبقوة كل هواء الغرفة.

أغمض عينيك لتسعِ ثوانٍ، فالرقم تسعة له مكانة خاصة عندي.. اشغل عقلك بي.. الآن افتحهما.. ولا تستغرب ما ستراه، ولا تضطرب من الروائح الغريبة التي سَتستنشِقُهَا، لا تخف من الظلمات التي اجتاحت المكان، فأنت فقط أسير كتابي، أنت الآن في عالمي الخاص، في بلاطي الملكي يلهوا من حولك المهرجين، وتنير معالم وجهك الوسيم شموع الحنين، وأي حنين؟ حنين المغامرة وإزاحة الغموض عن اليقين. ولكن تذكر.. فلن أوفر لك الحماية الكاملة هنا، والطريقة الوحيدة لضمان سلامتك هي إنهاء الكتاب فضلاً وليس أمراً.

أيّها المغامر.. من فضلك لا تتجاهل طلبي، وقم بالاستماع لمعزوفة أخرى لنفس الموسيقار لحظة تجوالك بين هذه الأسطر، والتي تدعى Waltz of the Flowers، ستهطل الأمطار بغزارة مجرد أن تداعب نغماتها أذنيك، ستثيرك رائحة التراب المبلل، وسيتحول صيفك وشتاؤك خريفاً، ستعصِفُ الرياح وتتصاعد الأمواج، ستشعر بالبرد. استمتع فأنت المقصود.

ما دمت تقرأ كلماتي الآن، فهذا يعني أنّك قررت خوض الرحلة، لذا سأكشف لك بعضاً من معالمها كي تفهمها ولا تعزف عنها فركز معي. سأُقدم لك عدة بوابات وعليك اختيار الأنسب لتدخلها:

بوابة الانترنت الخفي بذوق الفراولة، بوابة الانترنت العميق بذوق الشوكولاتة، بوابة الانترنت المظلم بذوق الفانيلا، بوابة الانترنت السفلي بذوق الكراميل.

الآن وبعد إتمامك الاختيار، سأعلمك بأن جميع هذه البوابات وما يعتليها من أذواق ليست مختلفة عن بعضها البعض، فجميعها تقُودك إلى نقطة واحدة وهي نقطة اللاَّعودة.. جميعها ستُذيقك طعماً وحيدا، وهو مذاق الدماء الدافئة، نعم لقد قمت بخداعك.. تعمدت استفزازك.. وهذا كإحماء لك لما ستجده مدونا بين صفحات كتابي. لا أريدك أن تفاجأ لمضمونه، لذا قمت بتحضيرك لأمر جلَل، فمفاجآتي هذه الأيام غير سارة بالمرة.

دون إطالة..

سأحيطكم علما بأنّ عالمي أحيك في رواية، سلطت الأضواء على أكثر الأماكن إثارة للجدل في عصرنا الحالي، و اقتحمت جدران الصمت التي تخفي من ورائها أصوات المعذبين في الأرض، جدران تحرسها تعاويذ رقمية حملت اسم The dark web، عالمها شاذ وغامض، تُلغى فيه القوانين تماما، ليكون الشّر و القتل سيّدا عليها، تحت عملة و راية واحدة، هدفها الأول إشباع النزوات البشرية، تلك التي حرّمتها الأديان السّماوية وعاقبتنا عليها قوانين الطبيعة حفاظا على الأمن والسلام، حتى وسائل الاعلام كانت شحيحة في فك أسرارها على شاشات التلفاز أو في محطات الراديو، ربما لندرة المعلومات عنها أو خوفا من التعرض للابتزاز و التهديد.

قد أُلحقُّ الخطر بنفسي الآن، بعد فضحي لمنظمات وجماعات متطرفة تنشط وراء شاشات الحواسيب، فرغم تجنبي ذكر أساميها مباشرة، إلا أنّ هذا لن يشفع لي، فتفصيلي لأحداث وبنود عمل هذه الجماعات، سيضعني في موقف لا أحسد عليه، عزيزي القارئ اغتنم فرصتك الآن، ولا تسألني كيف لي بكل هذه المعلومات، واكتفِ فقط

بالاطلاع على الرواية صفحة بصفحة فصلا فصلا، فلن أرضَى أن أفسد عليك متعتها، لذا سأدع أمر اكتشافها لك..

ولكن احذر!،

فالدماء تملأ المكان،

والحيطة ضرورية.

طواهرية عبد الرزاق

بتاريخ: 15 يونيو2017..

الساعة: 22:40

تنويه

يحتوي هذا العمل على معلومات حقيقية اختيرت بعناية من عالم الانترنت الخفي، وتُرجمت على شكل رواية، تسرد حقائق واقعية ودموية تمارس في حياتنا وتخفى عن أعيننا. شخصية البطل تجسد شخصكم، فلا تستغربوا مشاركته لكم نفس المشاعر. أما أسماء الشخصيات فمستوحاة من خيال الكاتب، لذا أتبرأ من أي شخص يعارض تداول اسمه في صفحات هذا الكتاب.

طواهرية عبد الرزاق

كونك لا تقوم إلا بالأمور التي يتوجب عليك القيام بها فهذا لن يجلب لك السعادة لكنّه أمر عظيم.

" جورج برنارد شو"

الفصل الأول: غريب في عالم غريب

ميدوسا تريد اللهو.. فهل من متبرع؟

عندما ترمقك الدنيا بنظرات الحب.. حاول الفرار دون الالتفات خلفك، فلن يكون من الذكاء اتّخاذ عجوز شمطاء كرفيقة، وإن صادف وبادلتها النظرات، ستُصَلِّبُ جسدك مثلما حاولت الفاتنة "ميدوسا" القيام به مع غريمها "بيرسوس"، فالدنيا ذات شِبَاك متينة إن أوقعت بك لن تفلت منها أبدًا!...

أعرفكم بنفسي.. أدعى **قيصر رزقي**.. وأنا شاب جزائري في الخامس والعشرين من العمر، ولدت بمدينة الجسور المعلقة "قسنطينة"، في أسرة كبيرة تتكون من خمس بنات وأخ وحيد. كنت مغرماً بالرسم والكتابة منذ صغري، فضلا على حبّي لمطالعة القصص المصورة للمانجا اليابانية، والتي كانت تجذبني

كثيرا. أما علاقتي بإخوتي فاتسمت بالسطحية، فلم أكن أحبذ الجو العائلي ولمة البيت وعادة ما أصاب بالغضب إذا ما زارنا ضيف ما، فقد كنت غريب الأطوار بشهادة والدتي، والتي دائماً ما تروي لي كيف أتعبتها في الولادة، فحسبها لم أصرخ إطلاقا عند رؤيتي النور لأول مرة، وكنت فاتحا عينيَّ بشدة وأتمعن العالم من حولي بنظرات مخيفة لا توحي بالبراءة البتة.

كدت أن أفقد حياتي يومها لولا تدخل أختي الكبرى، حيث أعانت أمي على الولادة داخل شقتنا في العمارة المتواجدة بحي "سيدي مبروك"، فحينها كان أبي يعمل في مصنع للعجائن بالغرب الجزائري، ما حتم عليه التنقل إلى هناك باستمرار بغية جني المال، والذي لم يتوقع أبدا أن يرى ابنه الأصغر النّور دون حضوره في مثل ذلك اليوم من شتاء يناير.

كانت حالتنا المادية لا تسر. فرغم قيام والدي بفتح محل لتصليح الآلات الإلكترونية، بعد أن استقرّ أخيرا في حينا، إلا أنّ هذا لم يكن بالشغل الذي يضمن لنا عيشاً مترفاً. فضلاً على هذا فقد أتعبتني فترة مراهقتي. حيث كنت فيها صبيا خجولا أتحاشى مواجهة المجتمع، أو حتى النظر إلى أعين الناس من حولي. كنت منعزلا تماما عن هذا العالم، وأراه لا يليق بشخص مثلي.

عند بلوغي سن الشباب والذي صاحبه ظهور تكنولوجيا الانترنت، وجدت نفسي تدريجيا أقع في فخ إدمانها، وعكس بقية أقراني لم أكن أرغب في إضاعة وقتي في الدردشة على تطبيقات التواصل الاجتماعي، من "البيرشار" و"الآيميش" وأيضاً "الماسنجر"، والتي ظهرت قبل بروز "الفيسبوك" آنذاك. بل كنت أطمح لأبعد من ذلك، فالتميز الذي لم أحظَ به في الحياة الواقعية أردت أن أناله في الحياة الافتراضية، لذا اهتممت كثيرا بدخول منتديات القرصنة الإلكترونية، وسعيت للانضمام إلى مجموعات "الهاكرز" الهواة والشغوفين من أمثالي، طمعا منّي في أن أصبح محترف برمجة معلومات معروف بين النّاس، ولِم لا الذهاب أبعد من ذلك، كوني صبيا يافعا لا يعني أن تكون أحلامي محدودة، فهذا ما كنت أؤمن به.

ازدادت حالتي النّفسية سوءًا بعد دخولي الجامعة، ولم أعد أجد لذتي أو راحتي حتّى بين جدران العالم الافتراضي. فوالدي لم يتحمل حينها مشهد حزني واكتئابي اليومي، لذا قرر أخذي إلى أحد أصدقائه لمعالجتي، وهو طبيب نفسي ذائع الصيت يدعى "مراد"، دخلت عيادته وكانت مريحة بحقٍ، الهدوء يسود المكان وابتسامته المشرقة أشعرتني بالطمأنينة والأمان، سألني بعض الأسئلة الشخصية محاولاً بأسلوبه الذكي التدرج في طرحها من العام إلى

الخاص، ولكنّه لم ينل المعلومات الصحيحة التي كان يرجوها، كوني لم أعترف قط لأيّ شخص في هذا العالم عن مشاكلي الخاصة إلا نفسي، التي كنت أحكي لها كل ما مرّ بي من ضجر وحزن ويأس وألم. قام الدكتور "مراد" بكتابة وصفة طبية لي تحوي بعض المسكنات. وفي محاولة يائسة منه للرفع من معنوياتي، أخبرني بأني شاب ذكي وسأحظى بمستقبل مليء بالمفاجآت، كما دعاني لزيارته إذا ما شعرت بالضيق من نفسي، فمكتبه جاهز لاستقبالي في أي وقت أشاء.

استمررت على هذه الحال قرابة العامين، استطعت خلالهما تحسين حالتي النفسية، علاوة في كون الأمر غريباً وصعب التصديق، إلا أنّ جهودي الذاتية وإيماني بمقدرتي على الشفاء هي من حققت لي ذلك. فقد غمرت نفسي تلك الفترة بقراءة أرقى كتب التنمية البشرية وتقوية النّفس. شخصيا لم أصدق بأنّي أصبحت شاباً ناضجاً ذا عزيمة قويّة وصاحب قرار. تحول مفاجئ أصابني وجعلني أغدو طموحاً ومتعطشاً للنجاح يوماً بعد يوم.

لقد أصبحت سيد نفسي في الحياة الواقعية والحياة الافتراضية على شبكة الانترنت أيضاً، حتى أنّي خططت للهجرة إلى الخارج. فبنمو رصيدي المعرفي أيقنت أنّي لن أحظى بفرصة للنجاح إن لم أسافر إلى البلدان التي تقدس العلم والعلماء، لم أكن أستطيع المضي قدما هنا، لذا سجلت في العديد من مواقع

الانترنت الخاصة بالهجرة، وكنت أنوي تجديد اشتراكي فيها كل عام عسى أن يحالفني الحظُّ يوماً ما، وأخرج من هذه القارة الفقيرة.

***

تبسة – الجزائر

الأحد 04 أغسطس 2013:

مضت الأربع سنوات الأخيرة في لمح البصر، انتقلت فيها عائلتي إلى مدينة "تبسة" شرقي الجزائر. وهي منطقة أثرية تزخر بالآثار الرومانية، والتي لم تحظ بالعناية الكافية لجعلها قطبا سياحياً، كونها عانت الإهمال والتهميش من قبل السلطات المحلية، كانت فترة تأقلمي داخلها صعبة نوعا، ولكني استطعت أخيرا التكيف مع مناخها وعقلية أفرادها، فهم أناس طيبون ومتسامحون جدا، إلا أن شبح العروشية والتفرقة الاجتماعية الذي جسده الاستعمار الفرنسي قبل رحيله، لا يزال مسيطرا على تفكير أغلب مواطنيها.

كنت قد أتممت دراستي بجامعة تبسة، واستطعت الحصول على شهادة الماستر في الإعلام الآلي بتقدير جيّد، طبعا فلمجال دراستي علاقة كبيرة في أن أغدو أحد أفضل مطوري البرامج والتطبيقات على مستوى البلاد. خصوصا بعد فتحي لقناة خاصة على اليوتيوب، ساهمت في التعريف بي وبقدراتي في مجال

التكنولوجيا الرقميّة، وحظيت بفضلها على آلاف المتتبعين، الذين دعموني وكانوا سببا لي في صقل مهاراتي، وبفضلها نلت فرصة لشغل وظيفة جيّدة في شركة بترولية بجنوب الجزائر ذات دخل محترم، فقد أخذوا رقمي الهاتفي من البيانات الشخصية التي وضعتها على واجهة قناتي في اليوتيوب، واتصلوا بي مبدين إعجابهم بمخزوني المعرفي، لذا لم أتوانَ في حزم أمتعتي للسفر إلى مدينة "حاسي مسعود"، لأمضي على عقد العمل هناك. وقد كان أمامي أربعة أيام فقط لخوض تجربة جديدة في حياتي، وهذه المرة كموظّف وليس كطالب جامعي، فقد نضجت الآن وأصبحت لا أفكر سوى في جمع المال والسعي للعيش الرغيد.

ذات يوم كعادتي و أنا أراجع بريدي الإلكتروني، لمحت رسالة حديثة وصلتني قبل ثلاث ساعات من أحد المواقع الإلكترونية التي سجلت فيها طلباً للهجرة، ارتديت نظاراتي الطبية وتفحصتها بحماس، لأذهل بكونها رداً يحمل موافقة رسمية على طلبي للهجرة والإقامة، مؤشرة من طرف السلطات الكندية، لم أتمالك نفسي لما شاهدته عيناي، قفزت وصرخت من شدّة الفرح، وبدأت أتنقل في أرجاء البيت وأغني كالمجنون، وأمي تلاحقني أينما ذهبت مستفسرة عن سبب فرحتي العارمة، فلطالما كان حلمي هو العيش في مكان يناسب مؤهلاتي، لأبني فيه مستقبلي وأحظى عن طريقه بالحياة المترفة التي كنت

أرغب فيها، وها هي ذي الفرصة قد أتت أخيرا، وما عليَّ فعله الآن هو استغلالها أحسن استغلال، والمضي قدما لتحقيق هدفي.

بتُّ الليل سهراناً عاجزاً عن الاختيار بين الهجرة إلى كندا، أو العمل المحترم الذي حظيت به مؤخرا. وعلى خلاف باقي أقراني، فأنا الآن أمر بأحسن فترة قد يتمنى أي شاب يافع أن يسلكها في حياته.

بقيت أفكر في الموضوع إلى أن أشرقت الشّمس واخترقت أشعتها الصفراء زجاج غرفتي. قمت إلى مائدة الإفطار نصف نائم، احتسيت كوبا من الحليب وتناولت بعضاً من الكعك، ثم التفتت إلى والديَّ وأخبرتهما بأنّ طلبي الذي أودعته للهجرة إلى كندا، قد تمت الموافقة عليه أخيرا. ليكون مقر إقامتي الجديد في مقاطعة "أونتاريو"، وعن نفسي لن أتراجع أبدا في قرار سفري إلى دولة تحترم الفرد، وتمجد الثقافة وتقدس العمل مثل كندا.

قام والدي من موضعه وسألني مستغرباً:

((أتترك عملا شريفا في بلادك يدر عليك أرباحًا كبيرة.. وتذهب للهجرة إلى بلاد الأجانب! أي غباء هذا؟ أتحسب الغربة أمرا سهلا؟ أتظن أنّك تستطيع تجاوز الشهوات هناك من خمر ومخدرات وبنات الليل؟ ولكن

هيهات.. فبسذاجتك هذه وعفويتك الزائدة عن اللزوم.. لا أظنّك قادراً على التأقلم هناك.. عليك التفكير جيداً في الأمر قبل أن تتخذ قراراً قد تندم عليه لاحقاً)).

تحدث كثيراً كعادته ثم غادر المنزل قبل حتّى أن يسمع ردِّي، في حين قامت والدتي بالاقتراب مني ثم احتضنتني وهي تقول:

((الآن عرفت سبب فرحتك المفاجئة ليلة أمس.. من ناحيتي فكن مطمئنا.. كوني موافقة على سفرك.. كيف لي أن أمنعك، قد غدوت الآن رجلاً يمكن الاعتماد عليه.. ومع هذا كن حذرًا في اختيار الطريق الذي تراه مناسباً لك.. وتذكر ألاّ تنسانا واتّصل بنا دائماً على "الفايبر" في حالة ما إذا قررت السّفر)).

((لا تقلقي يا أمي.. يد الله سترعاني.. وثقتي به ستقوى عزيمتي على العيش هناك)). كان هذا ردِّي على والدتي الحبيبة، والتي لطالما كانت سنداً لي، منذ طفولتي وحتى فترة شبابي.

بعد انتهاء هذا الحوار العائلي، انصرفت لإتمام الإجراءات الضرورية مع القنصلية، كي أحظى بحلم الشباب.. الـ visa. وقد حرصت على الاتّصال بهم هاتفيا في أقرب وقت ممكن.

مرت ستة أشهر كاملة، وها قد استلمت أخيرا جواز سفري وعليه تأشيرة الهجرة إلى كندا، حقيبة سفري معدة الآن، ويوم غد على السّاعة العاشرة تماماً، ستنطلق الطائرة التي سأسافر على متنها في رحلة مباشرة، من مطار "هواري بومدين" إلى مطار "مونتريال" الدوليين. كنت قد حجزت هاتفياً في وقت سابق غرفة في أحد الفنادق الجميلة بالجزائر العاصمة، كانت مريحة بحق، ولعل كوني وحيدا بداخلها، جعلني أشعر ببعض الضيق والضجر، لذا قمت بفتح باب الشرفة، ووقفت أطل منها على غروب الشّمس وألحظ اختفاءها تدريجيا من وراء المحيط.

ظل نسيم البحر يداعب جسدي ويشرح صدري بهوائه العليل، في لحظة مؤثرة أعلنت فيها أفكاري التحرر، وأخذ عقلي خلالها ينتشي الراحة والهدوء. تذكرت وداعي لوالديَّ ويا له من وداع، فرغم أنِّي لازلت في وطني الغالي، ورحلتي الجوية لم تنطلق بعد، إلاّ أنِّي قد اشتقت لهما كثيرا وبدأت أحسّ بطعم الغربة مبكراً.

ها قد أتى موعد سفري أخيراً، فالساعة الآن تشير إلى التاسعة والنصف صباحًا، وقد قمت مبكراً بجمع أغراضي وتوضيب حقيبتي، ولم يبق لي هنا سوى سحب مزلاج الباب وتسليم مفتاح الغرفة إلى إدارة الفندق.

تناولت فطوري في الطابق الأرضي ثم أوقفت سيارة أجرة، واتجهت مباشرة صوب مطار "هواري بومدين"، لأصل بعد لحظات في الوقت المحدد، ورغم إنهائي الإجراءات الأمنية والجمركية الضرورية، إلاّ أنّي لم أسلم أبدا من طابور الانتظار بين جموع الناس وسط الجلبة، ولكني استطعت الصعود أخيرا إلى الطائرة بقدرة قادر، وقد كانت تلك أوّل مرة اركبها.

استمرت الرحلة مدة طويلة دون توقف، امتلأ فيها وجهي حبورًا منذ إقلاع الطائرة، وبدأ خيالي يلاطفني ويجسد لي شكل المباني الكندية، والطبيعة الساحرة التي تلفُّها. أمضيت ساعات من الرحلة أخطط للأماكن التي سأزورها بعد وصولي إلى هناك، وأتساءل إن كانت شلالات نياجارا ستبدو بالفخامة التي تظهرها لنا شاشات التلفاز.. أم أنها غير ذلك.

مضى الوقت بطيئا جدًا ومملاً، كيف لا والطائرة تقطع بحرا بين قارتين، لذا قررت أن أغفو لبعض الساعات، علّني أتجاوز الضجر الذي ينتابني منذ جلوسي على المقعد، ولكن هذا لم يدم طويلاً، فبمجرد استسلامي للنوم، كانت الطائرة على أهبة الهبوط وإنهاء هذه الرحلة الطويلة، فتنفست الصعداء أخيرا، وحمدت الله على وصولي سالماً إلى الأراضي الكندية. فقد أحسست وكأنّي مولود من جديد، بالنسبة لي يعتبر السفر والتجوال من أفضل الأشياء التي تُسعد

الإنسان وتخرجه من دائرة الاكتئاب، وبما أن "مونتريال" بعيدة نوعا ما عن "أونتاريو"، فقد قررت أن أبيت الليلة هنا في أحد الفنادق المجاورة لأرتاح من عناء الرحلة المرهقة.

ساعدني تفوقي في اللغتين الإنجليزية والفرنسية على التحدث دون عوائق للحصول على غرفة جيّدة بمبلغ مناسب، فيما أعانني أحد السياح الأجانب على توجيهي لشراء شريحة هاتفية، قصد الاتّصال بوالديَّ وطمأنتهما على وصولي سالما إلى الأراضي الكندية.

استفقت صباحَا في أحسن أحوالي، تناولت فطوري وخرجت أبحث عن سيارة تقلني إلى محطة القطارات، لأنهي رحلتي برّاً هذه المرة، من شمال كندا إلى جنوبها، وقد شاءت الصدف أن تعرفت هناك على امرأة أردنية في العقد الثالث من عمرها، تدعى "إيلين سليم "، كانت سمراء البشرة، سوداء العينين والشعر ومتوسطة الطول.. كما أنّها تحمل قدرا كبيرا من الجمال المشرقي. وقد أبلغتني بأنها تعمل ككاتبة في أحد الصحف الأجنبية. وأنها الآن في طريقها إلى مقاطعة "أونتاريو"، وقد بدت سخية معي حين عرضت عليّ إيصالي إلى هناك في سيارتها الخاصة، بما أننا نحن الاثنين متجهان لوجهة واحدة،

فشكرتها على لباقتها وحسن سلوكها معي، لتكون بذلك شريكتي الجديدة في الرحلة.

تبادلنا في الطريق أطراف الحديث، فرغم قدرة "إيلين" على فهم اللغة العربيّة، إلا أنّها لم تكن تتقن التحدث بها بشكل جيّد، لذا اعتمدنا الإنجليزية كلغة تواصل بيننا. وقد أخبرتني صديقتي الجديدة قصتها وتجربتها الشخصية في هذه المدينة، حيث مضى على تواجدها "بأونتاريو" أكثر من خمس سنوات، بعدما كانت تعيش في "شيكاغو" الأمريكية، وهي غير نادمة البتة على التنقل إلى هذا البلد الهادئ والجميل. فكلامها هذا، قد أراحني وشجعني.. وأعاد لي الثّقة الكاملة التي كنت أحتاجها.

وصلنا أخيرا إلى مقاطعة "أونتاريو" وتحديدا إلى مدينة "لندن"، فرغم سلوكنا الطريق السريع إلاّ أنّ رحلتنا بالسيارة كانت طويلة جدا ومرهقة بحق، فالثلوج تغطي المكان وحالة الطقس تنذر بعاصفة ثلجية قادمة، وهذا سيعثر من مهمتي في التجوال والتّعرف على معالم المنطقة، وبعد وصولي إلى نقطة الافتراق بيني وبين صديقتي الجديدة، استودعتني بعد أن قامت بتقديم رقم جوالها وبريدها الإلكتروني لي، داعية إياي الاتّصال بها في أي وقت، إذا ما

استصعب عليّ أمر ما، فشكرتها على التوصيلة المجانية وعلى مساعدتها لي بالنصح و الإرشاد.

انطلقت بمفردي في رحلة البحث عن مكان ملائم لقضاء الليلة فيه، بدأت التجوال في المدينة، قاطعا الطرقات الواسعة والأرصفة المرصعة بالثلوج، متمسكا بملابسي من هول الرياح، فصادف أن قابلني أحد المارة يدخن على حافة الطريق، ويبدو لي كأنّه ابن هذه المدينة المكتظة بالسياح.

تقدمت منه ولم أتردد في أن أسأله عن مكان آوي إليه الليلة، ليجيبني بامتلاكه أستوديو للكراء بمبلغ مناسب للمهاجرين أمثالي وهو قريب من هنا، فاتجهت معه مباشرة إلى المكان، والذي بدا لي ضيّقاً نوعا ما بعد أن عاينته من الداخل. إلاّ أنّه نظيف جداً ومرتب، ومناسب لعيش عازب غريب مثلي. ومن الطرافة أن أوّل سؤال طرحته حول الأستوديو إن كان مزودا بشبكة انترنت أم لا، ليبتسم لي مالكه ويخبرني بعدم توقعه مني طرح هكذا أسئلة، فأغلب الناس هنا يبحثون عن فضاء خالٍ من خدمة الانترنت وليس مزوداً بها، كونها متوفرة في كل مكان "بكندا"، وبسببها أصبح الناس غير اجتماعيين بالمرة، فهو يرى بأنّ الانترنت نقمة قبل أن تكون نعمة.

استغربت كلامه قليلاً، ثم تابعت تفحص الغرفة، إلى أن ناداني للتفاوض على ثمن الكراء، واتفقنا بأن تتم باقي الإجراءات القانونية يوم غد، ثم انصرف بعد أن قبض مني عربوناً، وكانت تلك أوّل خطوة لي في الاستقرار "بكندا". فالحمد لله.. كون عملي في كافتيريا الجامعة أيام دراستي "بالجزائر"، قد أعانني كثيرا على جمع مبلغ محترم من المال، يكفيني للعيش هنا لمدة لا بأس بها، ويدفع عني الجوع والعناء حتى أجد عملا يناسب مؤهلاتي.

***

قد لا تعرف أبداً نتيجة أفعالك، لكن إذا لم تفعل شيئا فلن يكون هناك أي نتائج.

"غاندي"

الفصل الثاني: الخطيئة

مقاطعة أونتاريو - كندا.. الأحد 19 يناير 2014

استقريت أخيرا بمدينة "لندن"، بعد أن حظيت بعمل ذي دخل جيّد في أحد المطاعم الإسلامية، والذي يمتلكه محامي سوداني طيب يدعى العم "رقيب الراسي"، وهو شيخ أسمر طويل ونحيل، أصلع الرأس، تظهر عليه لحية رمادية خفيفة، لا تفارقه النظارات الشمسية إطلاقا، مغرم كثيراً بقبعة القماش السوداء التي لطالما يضعها في كل مناسبة، لن أنسى جميله أبدا حين فتح أمامي فرصة العمل في مطعمه، فقد كنت بارعًا في الطهي وسريعاً في الأداء، حازما في العمل ودائماً ما أنال رضاه، ولهذا فقد كان يسمح لي بعد إنهائي عملي مبكراً، في العودة إلى الأستوديو لأبدأ نشاطي المعتاد الذي احترفته في الجزائر، ولك من

دون القرصنة الإلكترونية، حيث أن ممارستها في كندا أمر خطير وجريء، وقد يقود إلى السجن.

قررت أن أطلق العنان لقدراتي وأن أصقل مهاراتي في عالمٍ رقمي يلفه الغموض، يجهله البعض ويخشى ولوجه البعض الآخر، عالم مخفي عن أعيننا، تمارس فيه ما لا تتوقعه عقولنا من أفعال، ويباع من خلاله ما لا يخطر على بالنا من مواد.

كل ما نتفحصه على مستوى شبكة الانترنت العادية، يعتبر جزءا صغيرا جدا من أصل وحش مرعب يدعى الانترنت العميق، والذي لم يسبق لأحد من معارفي أن شهد عليه بتجربة شخصية، لذا قررت أن أكون أنا فاتح الطريق والملهم لهم نحو هذا العالم الغامض.

شَبّه خبراء الانترنت مستويات The Deep Web بحبة البصل، التي تحتوي على طبقات متعددة تحمي لبها الداخلي، فالإنترنت العميق يتكون بدوره من طبقات وهمية عديدة، محمية ومخفية عن عامة الناس الذين يستخدمون الانترنت العادي، فكل طبقة منها تضم عالماً غريباً محفوفاً بالمخاطر والممنوعات. وهذه الطبقات ما هي إلا أجزاء صغيرة لقسمين كبيرين افتراضيين، أحدهما يدعى بالإنترنت الخفي، ويضم مواقع لبيع الأسلحة

والمخدرات وعرض المواد الإباحية الممنوعة، كجنس الأطفال وممارسة الشذوذ مع جثث الموتى، وأكثر الأفعال المقززة التي لن أقوى حتى على ذكرها... أما الجزء الآخر والأخطر فيدعى بالإنترنت المظلم، ويضم تكتلات لأقوى "الهاكرز" المحترفين في العالم، ومواقع غريبة تعرض مقاطع فيديو حقيقية لآكلي لحوم البشر، وهم يستمتعون بطهي أبناء جلدتهم بشتى الطرق المجنونة، إضافة إلى احتواءه الكثير من الكتب الممنوعة والمهينة للأديان السّماوية والمعتقدات البشريّة، معروضة للبيع في مكاتب إلكترونية مخفية، فلطالما أثار هذا العالم فضولي وها قد أتت الفرصة للغوص في أعماقه، وقد كانت هذه نقطة تحولٍ كبيرة في حياتي، والتي تمنيت ألاّ تحصل أبدا.

ذات ليلة وبينما أتصفح بعض المواقع الإلكترونية للنت الخفي على متصفح "تور"، والتي عادة ما تنتهي بكلمة:

(. onion) أو (. bit) بدلا من (.com)

وقعت عيني صدفة على موقع إلكتروني ذي خلفية سوداء يحمل إعلاناً غريبًا، وبعد تفقدي له بحذر تأكدت أنّه مخصص للاستفادة من خدمات القتلة المأجورين، أو ما يطلق عليهم بلقب: The Hitmen، حيث يمارس هؤلاء الأشخاص نشاطاتهم في أغلب دول العالم، وبعد اطلاعي على بعض البيانات،

علمت أنّ مقرهم الرسمي متواجد حاليا في الأمريكيتين، وهذا ما جعل الأمر يبدو مثيراً حقاً، فبكوني وحيداً الآن وبعيدا عن أعين المراقبين، وددت أن أجرب فكرة مجنونة كانت قد خطرت على بالي لتوها، أردت التأكد بها من صحة خدمات هؤلاء المجرمين، وما شجعني على القيام بها، هو امتلاكي لبرنامج VPN أصلي، والذي بفضله أستطيع فتح الكثير من المواقع الالكترونية المحجوبة، وكذلك إخفاء مكان تواجدي في هذا العالم عن أعين قراصنة الانترنت، بما فيهم إدارة هذا الموقع الإلكتروني، والتي توكل لهم بدورها مهام تقفي أثار الزوار السذج، الذين يشكلون تهديدا على نجاح أعمال هذه العصابة.

مرّت الأيّام وبقيت تلك الفكرة المجنونة تدب في رأسي، وتراودني كثيرا أثناء عملي، ولا تلبث أن تعود لتلاحقني مجدداً في مقر إقامتي، بل وقد حرمت عني النوم أيضاً، فحسُّ المغامرة لدي قد استيقظ، وبات يتغلغل بذاتي ويسلبني كياني، فغدوت عاشقا هائما بذلك العالم الغامض، منتظراً فقط إشارة ما تمهد لي طريقي للقيام بهذه التجربة الخطيرة. وفعلا.. لقد كان لي ما أردت. فذات مساء وعند عودتي من عملي اليومي، شُد انتباهي إلى مجموعة من سيارات الشرطة والإسعاف متوقفة أمام منزل مجاورٍ لي، وحشود من الناس ملتفة

حولهم، اقتربت من المكان وسألت بعض الفضوليين عماَ يجري هنا، فأجابني أحدهم بأنّ أسرة كاملة من ثلاثة أفراد، قد لقوا حتفهم بعد اختناقهم بغاز تسرب من المطبخ.

فوجئت بالأمر وتأسفت لفظاعة الحادث وللأرواح البريئة التي راحت ضحيته، وفي نفس الوقت بدت ملامح فكرتي الشيطانية بالظهور من جديد، فيبدو أنّي قد عثرت على أحد مفاتيح خطتي المجنونة تلك، لأبدأ التفكير في تنفيذها فورا ودون أي انتظار. استفسرت من أحد الجيران عن اسم مالك البيت المتوفى، وقد أبلغني أنّه عجوز مكسيكي في العقد السابع من عمره يدعى "خوسيه مينو"، وفي الحين قمت بتدوين هذه المعلومات في مذكرة هاتفي كي لا أنساها لاحقا، وأضفت إليها عنوان منزل هذا العجوز، ثم عدت مسرعا إلى الأستوديو الذي أقطن به، والذي أطلقت عليه اسم الغرفة المظلمة أو the dark room، تيمننا بالأفكار المجنونة التي تراودني بين جدرانه. ثم توجهت مباشرة إلى حاسوبي المحمول، ومن شدة الإثارة والحماس لم أعر أي اهتمام لبطني الذي ظل يؤلمني من شدة الجوع.

اللعبة الحقيقية قد بدأت لتوها بمجرد فتحي لمتصفح Tor، وقيامي بتفعيل البرنامج الخاص بإخفاء هويتي ومكان تواجدي على الـ Map. تأكدت من

كتابة رابط عنوان ذلك الموقع الالكتروني الغريب، الذي صادف واكتشفته مؤخراً، وفعلت خاصية البحث التلقائي، فلم تظهر أيّ نتيجة تذكر، قررت الاستعانة بالخطة البديلة، فاستخدمت أحد وحوش محركات بحث الانترنت الخفي، وهو الموقع الخرافي الذي يطلق عليه اسم Ahmia. والذي ألجأ إليه عادة في تقفي أثر السيرفرات الخاصة بـ onion

بعد عدة دقائق من البحث في هذا المحرك، استطعت أخيرا أن أجد الرابط الصحيح للموقع الإلكتروني الخاص بالقتلة المأجورين. فجمعت الهواء في رئتاي وأطلقت زفيراً كبيراً قبل أن أضع إصبعي فوق مفتاح Entrée، ترددت قليلا عند البدء ولكني تشجعت وقررت فعلها، كانت لحظة ضغطي على ذلك المفتاح هي رحلة اللاعودة في مغامرتي هذه، فقد كنت أعي جيدا أنّي قد فتحت أبواب جهنم على نفسي، بتجرئي على اللعب مع هكذا منظّمة.

بعد ثوانٍ معدودة ظهرت لي نافذة تسجيل الاشتراك، تحوي العديد من الإطارات الفارغة الواجب على ملؤها بمعلوماتي الشّخصية، قصد الاستفادة من خدمات هذا الموقع الإلكتروني. لأسجل أخيرا دخولي هناك باسم مستعار يدعى: ping**1911991**Z401root، ومعلومات مزيفة لا تمت لي بصلة

إطلاقاً. فكلما كان اسم المستخدم الذي أختاره غريباً وطويلاً، كانت مهمة كشف هويتي شبه مستحيلة.

رحبت بي إدارة الموقع الإلكتروني وهنأتني على ثقتي في الانضمام إليهم كمتعامل جديد، وقد شد انتباهي هناك عدد الزوار الرهيب الذي قارب تسعة آلاف زائر، انتقلت إلى الخطوة التالية بتجاوزي لهذا الترحيب غير المجدي، لأجد نافذة أخرى قد فتحت أمامي، تم سؤالي فيها بكل برودة إن كنت أرغب في قتل شخص ما.

كانت لحظة صعبة لا أنصح أحد بتجريبها، فلم يكن من السهل علي اتّخاذ أي قرار، وكأنّني محاصر في زنزانة وسط صحراء قاحلة، أخذت كأسا من الماء وشربت منه حتّى ارتويت. ثم داولت على الشهيق والزفير محاولا استجماع أفكاري المشتتة، فتذكرت السبب الذي جعلني أطرق أبواب هذا الموقع الإلكتروني، فمن غير المعقول أن أتراجع الآن بعد التخطيط الكبير الذي اتخذته مؤخراً، أجبت بنعم.. وانتظرت قليلا حتّى ظهرت لي صفحة جديدة تطلب مني إدخال معلومات تخص الضّحية المراد تنفيذ العملية عليها، ونوع القتل الذي أريد أن يميز هذه الجريمة، مع تنبيهي بأنّ المنظمة معفية تماماً من تنفيذ عملياتها على فئات معينة من الناس، وهم القصّر وما دون ذلك،

ورؤساء الدول والملوك وأيضاً الدبلوماسيين، مع التركيز على الرجال العشر الأكثر تأثيرا في العالم.

لقد لفتت انتباهي السياسة الحذرة لهذه المنظّمة في التعامل مع زبائنها، ولكن هذا لم يمنعني أبدا من تنفيذ خطتي التي سهرت الليالي من أجل رسم معالمها، بدأت في الحين بملء بيانات الضّحية، والذي لم يكن سوى "خوسيه مينو" نفسه، فبصفته حديث الوفاة، اعتبرته بذلك طعما فعالاً لاستدراج أفراد تلك المنظمة إلى منزله، وتحقيق غايتي في التأكد من صحة نشاط ذلك الموقع الإلكتروني من عدمه، وبالمقابل رجوت من السيد "خوسي" أن يسامحني على استغلالي له حتّى بعد موته، شخصياً لا أعتبر نفسي مجرما. فغالباً ما أتحاشى قتل حشرة فما بالك بإنسان.

لم يكن من خيار أمامي سوى نصب كمين لتلك العصابة، عن طريق الجار المتوفى، وبما أن جميع أسرته قد فقدوا حياتهم، فلا خوف لي من استخدام منزله كطعم يسهل تعقبي لهؤلاء المجرمين، أما عن طريقة القتل الذي أردتها أن تلحق بهذا المسكين، فلم تكن بالأمر الهين، كون الاختيارات أمامي كانت كثيرة، كجعل الجريمة تبدو حادث سيارة أو غرق أو حتى انتحار.. كل خيار ينفذ بمبلغ مختلف عن سابقه. وبهذا أدركت أنّهم يتقاضون أجرهم حسب

نوعية الطلب والمكانة الاجتماعية للضحية. ومن بين جميع هذه العروض شدَّ فضولي اختيار قد يساعدني في إدراك موعد الجريمة من مكاني، ألا وهو حرق الضحية داخل منزله، فعند رؤيتي لألسنة اللّهب تتصاعد من مكان إقامته، أكون بذلك قد أنجزت مهمتي وتأكدت مباشرة من صحة نشاطات هذه المنظمة.

كلفني هذا الاختيار قدراً كبيراً من أموالي التي ادّخرتها في الفترة الأخيرة، وقبل أن أسجل طلبي عندهم ظهرت لي نافذة تأمرني بتحويل المبلغ المالي لتفعيل الخدمة، في حين أن عملية القتل ستتم في غضون الأسبوع.

من المفارقات العجيبة أن الانترنت المظلم يمتلك عملة خاصة وموحدة تدعى بـ "البيتكوين"، وقد تعلمت من خبراتي السابقة في هذا المجال، كيف لي التعامل مع التحويلات المالية وصفقات البيع والشراء عن طريق النقود المشفرة (الرقمية)، حيث تتم الصفقات دون الكشف عن الهوية الحقيقية للمتعاملين من الزبائن، لذا فقد نفَّذت الأمر بكل بساطة وأغلقت الحاسوب المحمول، وكان هذا أكثر فعل متهور أقدمت عليه في حياتي.

***

مرت الأيام بسرعة منذ تسجيلي الطلب على مستوى إدارة ذلك الموقع الإلكتروني، وقد تمكنت هذه الفترة في الحصول على إجازة لعشرة أيام من رب عملي، وهذا كي أتفرغ لأمر هذه المنظمة الإجرامية، وها هو ذا الأسبوع الأوّل يمضي وأنا أراقب ذلك البيت الخاوي ليلا نهارا، ولم ألحظ به أيّ حركة مشبوهة، فقد كانت نافذة غرفتي مقابلة لمنزل العجوز المتوفى "خوسيه"، ما سهل عليّ أمر المراقبة دون تكلف عناء الخروج في هذا البرد القارس.

تدريجيا بدأت أدرك داخلي بأن مصداقية عمل هذه المنظّمة قد باتت كذبة، فشعرت بنوع من الخيبة لضياع جهودي سدى دون أي فائدة تذكر، لقد تبين لي بأنّي شخص غبي تم التحايل عليه وسُلبت منه أمواله مقابل خدمة وهمية، فالقناص الذكي أصبح الآن ضحية، وها هو ذا يحاول تهدئة نفسه ولكن دون جدوى.

يبدو أن الضجر قد وجد طريقه نحوي الليلة، لذا قررت مشاهدة فلم Perfume: The Story of a Murderer، عَلِّي أغير به من وتيرة السهرة، فقمت إلى مطبخي وأعددت كوبا من الشكولاتة الساخنة، ثم تكورت في بطانيتي محاولا نسيان أمر هذا الموقع الإلكتروني الغبي.. أو هكذا ظننت. فلم

تمضِ إلا عشرون دقيقة على بداية الفلم، حتى سمعت صوت محرك شاحنة قويٍّ آتٍ من الشارع المقابل.

قفزت من مكاني مسرعا لتفقد الوضع، ثم ألقيت نظرة خاطفة من النافذة، لأشاهد كاسحة ثلوج سوداءَ من نوع cbm12 تدخل الحيز السكني لمنزل "خوسيه"، وقد استغربت عما تفعله هذه الشاحنة في مثل هذا الوقت المتأخر، فالساعة الآن تشير إلى العاشرة إلا الربع ليلاً، وبسبب كبر حجمها الذي حجب عني مراقبة باب المنزل، قررت ترك الأستوديو وتفقد الوضع عن قرب دون أن أثير الجلبة.

ارتديت معطفي الأسودَ وخرجت أمشي بخطوات حذرة، حتى وجدت موقعا مناسبا بين الأشجار جثوت فيه على ركبتاي، وكأنني جندي متموه يسعى لكبح هجمة إرهابية، وبعد تأكدي من إغلاق هاتفي المحمول، أمعنت النظر جيدا صوب الشاحنة، لأرى رجل وامرأة ملثمين ينزلان منها، وبخطوات ثابتة تقدم الرجل من المنزل حاملا دلوا أسودَ، وبدأ برشه من جميع الأنحاء، في حين عادت المرأة مجددا إلى الشاحنة وأيقظت محركها.

أثر بي هذا المشهد بشدة، فتملكتني قشعريرة عابرة، أصيبت أطرافي على إثرها بالتنميل، وأيقنت أنّ ما يحدث الآن هو تنفيذ لطلبي المتهور. بدأت أتعرق بشدة.. تسارعت نبضات قلبي وشعرت بالدوار، فبعد اقتناعي بكونهم منظمة مزيفة لا وجود لها على أرض الواقع، وأنَّ موقعهم الإلكتروني قد صُمم للتسلية وسرقة أموال الناس، ها أنا الآن أجد نفسي على مشارف الموت، متمنياً العودة بالزمن إلى الوراء للتراجع عما فعلته، فأنا نادم كل الندم على ما اقترفته يداي، فمنزل شخص بريء ومتوفٍّ سيحترق الآن بسببي، سيؤنبني ضميري طيلة حياتي على ما فعلته، هذا إن نجوت أصلاً من قبضة هذه العصابة.. وأي عصابة! قتلة مأجورين.. أفرادها بؤساء وغير متسامحين.. وينشطون في كل الأوقات.

لحظة انهماكي بالتفكير، باغتتني ألسنة اللهب وهي تلتهم المنزل الخشبي بأكمله، وكاسحة الثلوج قد انطلقت تاركة وراءها جحيما من النيران والأحزان، لم أتمالك نفسي فاتصلت برقم الطوارئ، ثم انطلقت مهرولا قاطعا طريقاً مختصراً للحاق بتلك الشاحنة، بالإضافة لكونها كاسحة ثلوج فقد كانت تسير ببطء شديد كي لا تلفت الانتباه. فعلا لقد كان تمويها لا تقوم به سوى العصابات المحترفة.

تابعت الشاحنة بناظري حتى توقفت أمام حاوية قمامة، فنزلت منها الفتاة دون قناع، وكانت تلك أوّل مرة أرى فيها وجهها الجميل بوضوح، تساءلت أَنْ كيف لحسناء مثلها أن تُقحم نفسها في أعمال بذيئة كهذه؟ قامت هذه الأخيرة بإزالة ملصقات الترقيم المزيفة من على الشّاحنة، ورمت بها في الحاوية ثم أشعلت النار داخلها، وعادت هذه المرة لتنطلق بها بسرعة كبيرة، ومن حسن حظي أني استطعت قراءة لوح الترقيم الأصلي، الذي يحمل اسم مقاطعة "كيبك"، قبل أن يختفيا عن مجال نظري.

***

ذلك الانتظار الحلو المر انتظار شيء جميل يرجو أن يحدث ولن يحدث.

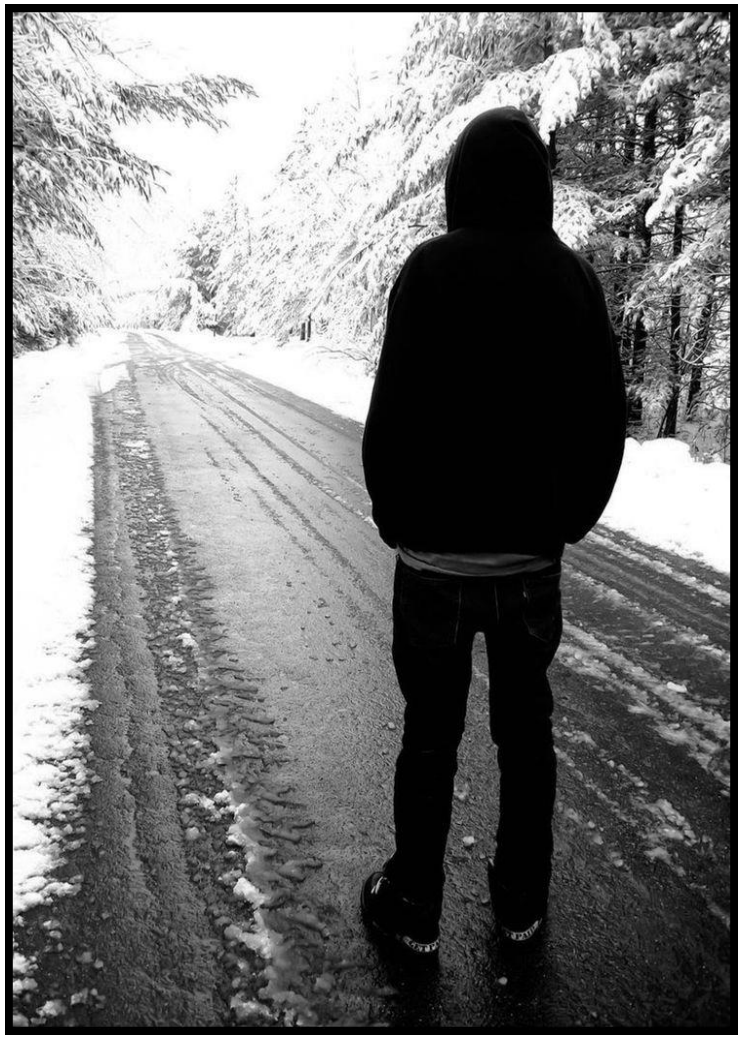

"توفيق الحكيم"

الفصل الثالث: قلب مسيطر وعقل مطيع

انتهت فترة إجازتي وعدت إلى عملي مجددا في مطعم العم "رقيب"، وقد لاحظ زملائي في المطبخ تغير ملامح وجهي قليلاً، فأعلموني بأني فقدت بعضا من وزني، كيف لا وأنا السبب الأوّل في كل هذا البلاء الذي حل بي، نتيجة لأفكاري الغبية، التي أدت بي إلى فقداني الإحساس بالنوم، ما أثر على شهيتي للأكل أيضا.

بعد مضي ثلاثة أشهر، بدأت أستعيد صحتي مجدداً، ولكنّ الشعور بالذنب لازال يراودني، فقد فكرت مرارا أن أفضح ذلك الموقع الإلكتروني اللعين في الصحف والجرائد ليتم إيقافه، ولكن هذا الأمر يعد مغامرة في حد ذاتها، فلست مستعدا أن أورط نفسي مع الشرطة الكندية، من المؤكد أنّهم سيلقون القبض عليّ، ثم سيسألونني من أين لي بكل تلك المعلومات؟ وما دليلي على صحتها؟ وحتى إن نجوت من أفراد الشّرطة، فعصابة كهذه لن تترك أمر إفشاء

سرها يمر هباءً، على الأرجح أنّهم سيجمعون معلومات هامة عني، لتساعدهم في الوصول إليَّ وقتلي، وهكذا سأكون في وضع لا أحسد عليه، فالتزام الصمت ومحاولة تناسي الأمر، يعد الحل الأمثل لي إن أردت المحافظة على حياتي.

يبدو أن مدينة "لندن" تعاتب الاعتدال الربيعي هذه الأيام، فقد بدأت الثلوج بالذوبان أخيرا، وظهرت على أثرها مساحات خضراء زادت من جمال المنطقة ونضارتها، وبينما انشغلت كعادتي في الطهي وإعداد الوجبات للزبائن، ناداني العم "رقيب" إلى مكتبه في المطعم، طالباً مني عدم التأخر في المجيء، فالأمر مهم ويستحق العجلة.

تركت زميلي يتابع عملي وأسرعت إليه مستغربًا سبب إلحاحه على قدومي. طرقت الباب ليطلب مني الدخول والجلوس، ثم أخبرني أنه يود اطلاعي على شيء مهم، جلست وانتظرت للحظات قام فيها العم رقيب بإخراج ورقة مختومة وممضية من درج مكتبه، وقدمها لي وهو يقول بنبرة يسودها الهدوء:

((ألف مبروك عزيزي "**قيصر**" فقد تمت ترقيتك إلى شيف!))

((ولكن سيدي.. "سامح" هو شيف المطبخ حالياً! أتود أن تضعني مكانه؟ في الحقيقة سيؤثر هذا عليه.. فلطالما تعلمت منه الكثير.. واستفدت من خبراته في إعداد مختلف الأطعمة شرق أوسطية.. فهو أفضل مني في إدارة المطبخ)).

كان هذا ردي على العم "رقيب"، والذي سخر منه ثم قال:

(("سامح" هو أصل هذا المطبخ ولن يتم استبداله مطلقاً)).

أحسست وكأنّ تغييرا مفاجئا سيطرأ على إدارة المطعم، فسألته مجددا:

((لم أفهم كلامك.. وضح لي من فضلك يا عم)).

((لقد قمت بفتح فرع لهذا المطعم في مقاطعة "كيبك".. وأردتك أن تشرف عليه هناك.. فلا يوجد من هو أكثر أمانة ومسؤولية منك من بين جميع العمال الجدد.. فأنت رجل طيب وجدير بالثقة.. كما أن طبخك لذيذ ودائماً ما ينال ثناء زبائننا.. فبماذا ستكون إجابتك؟))

بمجرد سماعي لكلمة "كيبك" سال العرق على جسدي، وراودني خوف مفاجئ من شيء مجهول قد يصيبني هناك، فقد تذكرت أمر تلك الشاحنة التي تنتمي لذلك المكان، في الواقع لم أود أن أغضب العم رقيب وأرفض عرضه، فأخفيت ارتباكي وقلت: ((طيب أيّها العم.. أشكرك على ترقيتي.. فأنا موافق وبكل

سرور على ترأسي أحد فروعكم المحترمة.. ولكن ماذا عن الإقامة هناك؟ هل سأجد مكاناً قريباً من مقر عملي يوفر لي المبيت؟))

أجابني العم قائلا:

((لا تقلق يا "قيصر" فقد دبرت أمر إقامتك وخصصت لك غرفة جيدة في المطعم.. ولن تدفع عنها أي دولار.. أما الآن فقم حالا وحضر أمتعتك فغدا صباحاً ستسافر إلى "كيبك" مع أحد أعواني.. والذي سيدلك بدوره على المكان الذي ستعمل به)).

قمت بتحية العم "رقيب" وشكرته مجددا على الثقة الكبيرة التي وضعها بي، ولكن حقيقةً لم يهدأ لي بالٌ أبداً، فقد بدأت الأفكار السيئة تتبادر إلى ذهني وتنذرني بمصيبة ستلحق بي هناك، وإحساسي عادة لا يخطئ خصوصاً في مثل هذه المواقف.

***

مقاطعة كيبك - كندا.. الجمعة 03 أبريل 2015

هواء عليل يشرح الأنفاس هنا في "كيبك"، وشعور الغربة بدأ يتلاشى تدريجيا في هذه المدينة الجميلة، فالجالية العربية متواجدة بكثرة هنا، وهذا ما أراحني كثيرا وأزال القلق عن كاهلي.

يبدو أن قدراتي كـ "شيف" قد بدأت في الظهور سريعاً، فلم أكن أتوقع أني قد أغدو بهذه المهارة في الطهي يوما ما، لا بل وتعديت الأمر لأصبح من أفضل مدربي الطبخ في سلسلة مطاعم العم "رقيب"، خاصة بعد تواجدي في "كيبك" لمدة اثني عشرة شهراً منذ مزاولة لعملي بها.

اتّسم وضعي المادي والنفسي بالاستقرار، خصوصا بعد زيادة راتبي وحصولي على رخصة السياقة، فضلا على استفادتي من خدمات سيارة المطعم "التويوتا" في أي وقت أردت، كونها ساعدتني كثيرا في اختصار الوقت والمسافات، ولأكون صادقاً.. فقد كانت لي عونا في قضاء حاجاتي الشخصية أيضاً. إلى أن جاء ذلك اليوم الملعون.. بينما أشغل نفسي بتحضير وجبة "الدوبارة" الجزائرية، ركنت سيارة سوداء ذات زجاج معتم أمام المدخل الأمامي للمطعم، لم أهتم كثيرا لأمرها ظنًّا مني أنّها تعود لأحد الزبائن فتابعت عملي كالمعتاد، ليأتي لي نادل المطعم وهو يقول:

((“شيف" من فضلك نود طبق "البوتين" للآنسة الشقراء الجالسة في ذلك المقعد!))

طلبت من مساعدي "كيفن" أن يتكفل بتنفيذ الأمر فورًا، وعند رفعي لرأسي للتأكد من صاحبة الطلب، تجمدت مكاني من هول الصدمة، وأحسست كأنني جندي في رقعة من الشطرنج، قد أحاطت به الملكة من كل جانب ولا مصير له في النجاة أو الخروج من هذه اللعبة حياً، فتلك الحسناء لم تكن سوى المرأة المنتمية لمنظّمة القتلة المأجورين، والتي تعرفت على وجهها بعد نزولها من تلك الشاحنة لتُزيل ملصقات الترقيم المزيفة، بعد قيامها هي وزميلها بحرق منزل "خوسيه"، وكان ذلك قبل عام تقريباً. إنّها هي بشحمها ولحمها وشعرها الذهبي الطويل، فلطالما كانت ذاكرتي قويّة وقلما تخطئ.

استجمعت قواي وتعاملت مع الوضع بشكل طبيعي حتى لا ألفت الانتباه. وطلبت من "كيفن" أن يحل مكاني هذه الليلة فأمامي أمر مستعجل علي القيام به، وبكل سرور تقبل الأمر وطلب مني أن آخذ كامل وقتي ولا داعي للعجلة، فهو في الخدمة طالما أضع ثقتي به، فعلا لقد كان صديقاً طيباً فرغم بدانته المفرطة لم يكن يغضب من مزاحي معه، فكثيرا ما أناديه بلقب "أبو كرش" والذي أغاضه في البداية بعدما شرحت له معناه، ولكنّه تأقلم عليه مؤخراً.

لقد كان ذراعي اليمنى وحافظ أسراري، وقد وعدته بأخذه معي إلى "الجزائر" في رحلة عودتي.

أمليت النصائح على مجموعتي ثم انصرفت بعدها متوجها إلى غرفتي، قمت بأخذ حمام سريع، غيرت ملابسي ونزلت مسرعا إلى سيارة المطعم، ولحسن حظي لم تفرغ تلك الآنسة الشقراء من تتناول وجبتها بعد، بدأت أتأملها بعمق وأفكر في جملة الأحداث المترابطة التي وقعت لي مؤخراً، محاولا أخذها بجدية. فكأنّ القدر قد سخر لي الظروف المناسبة للمضي قدماً، وما عليّ سوى مواصلة الدرب بحذر، وجمع أكبر قدر من المعلومات عن هذه المنظّمة. فبعد أن كنت خامداً، أتت هذه الجميلة وأثارت بي جنون المغامرة من جديد، لذا لم يكن من خيار لدي سوى تقفي أثر هذه الفتاة.

لقد قررت هذه اللحظة إتمام مهمتي الخاصة التي توقفت عنها منذ رحيلي إلى هنا، فضلا على ذلك فقد صممت على تحويل هدفي، من نظري إلى تطبيقي، وذلك بسعيي لاختراق الموقع الإلكتروني لعصابة القتلة المأجورين الناشط في الانترنت المظلم، بنية إنقاذ مئات الأرواح البريئة حول العالم والتي راح معظمها كضحايا لهذه المنظمة الإجرامية، وكل هذا بعد أن أجمع عنها ما يفيدني ويساعدني من معلومات وحقائق. فرغم كوني في كامل قواي العقلية،

إلاّ أنّ هدفي الذي رسمته يبدو غريباً ولا يستسيغه عاقل، ربما يكون سبب انقيادي نحو هذا النوع من المهام الخطيرة هو: مهاراتي الخاصة في القرصنة الإلكترونية، ومقدرتي على اختراق هكذا مواقع من بيتي دون حتى أن ألفت الانتباه، فكوني أملك موهبة الاختراق، فلما لا أستخدمها في شيء مفيد لإضفاء بعضاً من السلام على هذا العالم الهمجي، والذي لم يعد للأمن فيه مكان.

بعد عشر دقائق من مراقبتي لتلك الحسناء، ها هي ذي تخرج من المطعم وتركب سيارتها السوداء من نوع "ميتسوبيشي" ثم تنطلق بها، و طبعا فقد قمت بتتبعها بحيطة وحذر حتى لا تنتبه لوجودي خلفها، حين قامت أوّلا بالانعطاف يمينا وسلكت الطريق السريع، ولم تتوقف حتى وصلت إلى منعرج ضيِّق مرت من خلاله ببطء، لتقابلها بناية عالية مختلفة الألوان وشديدة الإنارة، تبدو وكأنها "كازينو"، فركنت سيارتها أمامها وهمت بالخروج، ولكني أسرعت والتقطت لها صورة بهاتفي الذكي، ثم عدت أدراجي إلى المطعم، حيث أمضيت الليل أفكر في اقتحام ذلك "الكازينو"، بعد أن استخدمت تلك الصورة في محرك بحث "جوجل"، طمعاً مني في الوصول إلى

معلومات داخلية تخضه، فالخطة المثالية التي خططت لها و رسمتها، تنتظر مني الصبر و التأني لضمان تنفيذها بنجاح.

***

افتتح موسم الاصطياف في هذه المدينة الرائعة، وها قد اندمجت فيها تماما وأصبحت جزءًا لا يتجزأ منها، حفظت شوارعها الواسعة وأزقتها الجميلة، كما ألفت وجوه سكانها الطيبين، وقد تعودت مؤخرا على زيارة ذلك "الكازينو" من حين لآخر، وفي أوقات مختلفة كي لا ألفت الأنظار، فأصبحت أرى تلك الفتاة بشكل شبه يومي، ولطالما شدني النظر إلى عيونها الزرقاء، لأتساءل بداخلي أن كيف لوجه ملائكي مثلها بقادر أن يخفي من ورائه شيطانة بشرية.

ذات مساء وأنا جالس داخل ذلك "الكازينو"، أحسست بيد دافئة تحط على كتفي الأيمن، لوهلة ظننت نفسي أتخيل ولكنني كنت مخطئ، ففور استدارتي خلفي وقعت عينيَّ على تلك الفتاة الشقراء، والتي كانت تهم في الجلوس بجانبي حاملة في يدها المزينة بالوشم كأسا من النبيذ الأحمر. حيث ناولتني إياه وهي تقول:

((ماذا يفعل شاب صالح مثلك في هكذا أماكن قذرة؟ أرى أنّك مواظب يومياً على تفقد هذا "الكازينو" فمن الغريب رؤيتك متسمرًا في مقعدك لا

تستهويك لعبة قمار واحدة.. فحتى من طاولة البوكر تتحاشى الجلوس أمامها.. ترى ما خطبك؟ هل تخشى على أموالك من الضّياع؟ أم أنّك تنتظر معجزة تنزل عليك من السّماء وتخرجك من حالة الإفلاس التي تبدو أنّك تعاني منها)).

فور انتهائها من الكلام شعرت بقشعريرة عابرة تسري في جسدي، أحالت بيني وبين النظر إلى عينيها الساحرتين. فغريب ما يحدث لي حقاً. يبدو أن القدر قد بدأ يسخر مني مجددا، فالفتاة التي كنت أعمد على مراقبتها يومياً، تعزمني شخصياً على كأس من النبيذ. يا لها من صدفٍ غريبة! يبدو أني ضحية لقانون الجذب هذه المرة، فاللعبة قد ازدادت متعة عن سابقها، لكن ورغم هذا وجب مني توخي الحذر، فلعل الأمر مجرد خدعة، فليس من المستبعد أنّه قد تم التخطيط للإمساك بي من طرف تلك المنظّمة، لذا ولأبعد الشكوك من حولي، قمت بالتعامل مع تلك الفتاة على طبيعتي، فقطعت حبل الصمت وأجبتها قائلا:

((عذرا آنستي فأنا لا أحبذ شرب النبيذ)).

((حسناً أظنُّ أنّ دعوتي باتت مرفوضة.. سأنصرف عنك الآن أيّها الغريب.. ولكن قبل ذلك أريد منك أن تجيبني على سؤالي السابق.. ماذا تفعل هنا؟)). كان هذا ردها عليّ ومعالم الاستياء قد ارتسمت على وجهها الجميل. لا أنفي حقيقة اشتهائي الحديث إليها، ولكن في وضعي هذا كان السكوت هو سيد الموقف، والحل الأنسب لتفادي المشكلات، لذا قررت تجاوز مشاعري نحوها وعدم الرد عليها، فقمت من مكاني قاصدا الخروج من ذلك "الكازينو"، لتحتضنني من الخلف وتمسكني بكلتا يديها، في محاولة يائسة منها على إرغامي في البقاء لبعض من الوقت، ففضولها نحوي لم يرتوِ بعد، ولكني خلصت نفسي من قبضتها وقمت مهرولا إلى الخارج دون أن أتلفظ ببنت شفى، في حين أمطرتني بوابل من الكلمات الغريبة، والتي تبدو منحدرة من اللّغة الروسية، أظنّها كانت تشتمني ولكني لم أبدِ لها أي اهتمام، رغم تأثري الكبير بلحظة احتضانها لي وإحساسي بدقات قلبها تطرق أبواب جسدي. فركبت سيارتي وانطلقت مسرعا إلى المطعم، وحرصت على ألا تلحق بي، كي لا تكتشف مكاني.

جنا الليل ولا زلت أفكر بتلك الحسناء. وقد عاتبت نفسي على نسياني سؤالها عن اسمها، وعلى وقاحتي المفرطة في الحديث معها وتجاهلها، وفي نفس

الوقت كنت راضيا مبدئيا على اتّخاذي ذلك الموقف نحوها، بالنسبة لي مصادقة فتاة مثلها يعتبر مجازفة حقيقية قد تقود إلى الموت، فقناع الوجه الجميل ذاك يخفي من وراءه أنثى متمردة كـ "ليليث" زوجة "إبليس".

لم أقوَ على النوم من شدة التفكير بها، لذا وضعت رأسي على الوسادة وجهزت سماعات أذني، ثم شغلت تطبيقي المفضل الذي يدعى sleepo، واستسلمت لأصوات الطبيعة الغناء من أمطار ورعود ورياح، فقد كنت مدمنا على مثل هذه التطبيقات وغيرها من المقاطع الصوتية للـ ASMR. وما هي إلا لحظات قليلة حتى ارتخت عضلاتي وحل السكون خاطري، لأغط بعدها في نوم عميق.

استفقت صباحاً على نحو مريح، إنّه يوم عطلتي وعليّ أن أستمتع به وأستغله أحسن استغلال، وأن أزيح عن عاتقي جميع الأمور السلبية التي أنهكتني مؤخراً، لذا قررت زيارة منتجع Montmorency Falls Park، والاستمتاع بشلالاته الرائعة وهوائه العليل.

قمت بتناول فطوري الذي أعددته بنفسي، ثم بادرت بارتداء لباسي الرياضي، وحملت حقيبة ظهري لأنطلق بعدها إلى سيارتي، ويا للمفاجأة غير المتوقعة.. لقد شلت أطرافي عن الحركة، أيعقل هذا! لقد كانت فتاة "الكازينو"

تلك بتسريحة ذيل الحصان، واقفة أمام سيارتها السوداء في الجانب الآخر من الطريق تلوح لي بيدها.

عقدت الدهشة لساني، ولم أجد أي تفسير لما يحصل لي حالياً، فكيف لها أن تقفّت أثري بكل هذه البساطة!

رغم غرابة المشهد، فلم يكن من خيار أمامي غير الثبات، والتوجه للحديث معها، لذا شققت طريقي نحوها، وبادرتها بالتحية أوّلاً وأنا أقول:

((مرحباً بك في مطعمنا المتواضع آنستي الفضولية.. إن أردت طبقا من "البوتين" اللذيذ الذي قدمته لك مسبقاً.. فمساعدي "كيفن" سيكون كفيلاً بإعداده لك هذه المرة.. فهذا يوم إجازتي وعليّ قضاء بعض الوقت بعيداً عن أجواء العمل)).

لتجيبني بابتسامة ساخرة:

((إذا أنت من أعد لي ذلك الطبق الشهي! حسنا لم أكن أتوقع أنك بهذه المهارة في الطهي.. ولا داعي لإخباري بأمر إجازتك الآن.. فأنا لم آتِ هنا للأكل.. ألا ترى أن الوقت لا يزال مبكرا على تناول البوتين!)) لأرد عليها:

((إذا ما جاء بك إلى هنا؟))

نزعت نظاراتها الشمسية ووضعتها جانباً، ثم دققت النظر في عينيَّ وقالت:

((لقد أتيت فقط للحديث معك على انفراد، فأعرني بعضا من وقتك واصعد إلى سيارتي من فضلك.))

بدأت دقات قلبي تدق جدران صدري، وتملكني شعور غريب بالضعف أمامها، تراجعت إلى الخلف قليلا وسألتها:

((عذرا! ولكن ماذا تريدين مني آنستي الجميلة؟))

((اصعد إلى السيارة.. هناك ستعلم مني كل شيء)).

أجابتني بثقة كبيرة زادت من حيرتي وخوفي. فأحسست وكأنني فأر صغير وقع في المصيدة، لقد كنت أظن نفسي ذكيا وأحسن اللعب، ولكن الوضع مختلف هذه المرة وينذر بمصيبة، فلابد أن هذه الشيطانة قد اكتشفت أمري وتريد الإيقاع بي.

أيعقل أن تكون نهايتي على يد امرأة؟ بدأت أفكاري تتشتت وعزيمتي تنهار، وقد بدا واضحا على وجهي ملامح الذعر والخيبة، ولكن قوة مجهولة المصدر دفعتني إلى ركوب السيارة وكسرت عني حاجز الخوف الذي كان يعتريني. ابتسمت لي تلك الشقراء وسألتني:

((ما اسم المكان الذي كنت تنوي الذهاب له يوم عطلتك هذا يا سيد "**قيصر**"؟))

ذهلت لمعرفتها اسمي، ولكني فضلت عدم الخوض في الكلام معها، واكتفيت بإجابتها قائلا:

((كنت أنوي زيارة منتجع Montmorency Falls Park.. لماذا تسألين؟))

فردت عليّ بابتسامة:

((لأنّنا سنتحدث هناك على انفراد يا عزيزي)).

شعرت بقليل من الثّقة لاختيارها المكان الذي كنت أنوي زيارته ليكون موضوع حديثنا، كونه مليء بالعائلات ولا داعي للخوف من أن يصيبني مكروه هناك، فبدأت أطمئن نفسي بأنّ الأمور ستسير على ما يرام...

حدقت بي طويلا وكأنّها تنتظر إجابتي..

لم أتردد بدوري وقلت لها: ((لك ذلك أيّتها الشقراء..))

ابتسمت لي. ثم دعتني لوضع حزام الأمان، وأسرعت في الانطلاق، مستعرضة أمامي مهاراتها العالية في السياقة، ولهذا لم أستغرب سبب توليها القيادة في مهام تلك المنظّمة القذرة.

***

المرأة دمعة وابتسامة: دمعة من سماء التفكير، وابتسامة في حقل النفس.

"فيكتور هوجو"

الفصل الرابع: في كنف الأعداء

صاحب وصولنا إلى المنتجع، تساقط كميات كبيرة من الأمطار لذا فضلنا البقاء في السيارة والتحدث داخلها. قامت حينها الآنسة الجميلة بخفض موسيقى "الروك" التي سبق وأن شغلتها طيلة الطريق، ثم همت بالتعريف عن نفسها قائلة:

((أعتذر عن التأخر في التعريف بنفسي.. أدعى "كريستينا ميتروفا" وأنا شابة روسية أتت لإنقاذك من الموت.. ألا يبدو لك الأمر غريباً نوعا ما يا "**قيصر**"؟))

عند سماعي لما قالته، حل الضيق في صدري، واشتد الألم بمعدتي، وأيقنت اكتشافها لأمري، لذا فضلت التزام الصمت وتركها تتابع حديثها، فلساني الآن

عاجز عن الحركة ولست بقادر حتّى على النطق بسلاسة، وضعت يدها على رأسي لتهدئتي، ما جعلني أبدو كطفل صغير قد ظل طريقه إلى المنزل، ثم استرسلت في الحديث تقول:

((لا داعي للدخول في المقدمات الآن.. فكلانا يعرف ما الخطأ الجسيم الذي اقترفته يداك.. لذا سأصيب مباشرة صلب الموضوع..))

سألتها مذعوراً:

((ما الأمر.. ما الأمر؟))

((أيّها الشاب عديم الخبرة إنّهم يسعون لقتلك.. وقد وكلت لي مهمة جمع المعلومات عنك.. أنت الآن في ورطة حقيقية وقد باتت أيامك معدودة..))

أظلمت الدنيا في وجهي عند سماعي لما قالته توًّا، وسكن اليأس قلبي بعد إدراكي الخطر الذي ينتظرني، أردت فتح باب السيارة في محاولة يائسة للفرار من هذا المأزق، ولكني لم أفلح في ذلك. التفتت إلى الفتاة لأرجوها بأن تخلي سبيلي، ولكن عكس ما توقعت فقلبها ليس بالرقة التي تخفيها معالم الحسن في وجهها، كونها بدت مستعجلة في أداء مهمتها، حيث وضعت مسدسها على رأسي وبادرت بالقول:

((أعلم أنّ الأمر صعب عليك تقبله.. فلن تستطيع فهمي ما لم تهدأ.. لو كنت أنوي قتلك لفعلت ذلك حالا.. ولكني أتيت هنا لحمايتك أيّها الغبي.))

((لا تستهزئي بي! كيف تريدين أن أصدقك وأنت تضعين هذا المسدس اللعين على رأسي! أنا لست أخاك أو زوجك ولا أحد أفراد عائلتك لكي تقومي بحمايتي.. فما السبب وراء سعيك هذا لأنقاضي؟))

لترد عليّ بغضب:

((ليس مهم معرفة سبب إنقاذي لك الآن.. فالشيء الوحيد المهم هنا هو أن تخرس وترضخ لي إن رغبت في العيش)).

فصرخت فيها قائلا:

((من فضلك لا تخدعيني بهذا الهراء مجددا يا "كريستينا".. لا أريد حماية منك ولا من أحد غيرك، فكل ما أريده هو العودة إلى بلدي.. لقد سئمت العيش هنا.. أرجوك اخلِ سبيلي.. أنا أترجاك أن تتركيني أمضي لحالي، وأعدك بأّنك لن تريني في هذا المكان مجدداً..))

كان ردي عليها قاسياً نوعا ما. ولم أكد أنهيه حتى سددت لي ضربة قويّة على مؤخرة رأسي مستخدمة مقبض المسدس، فأردتني بها صريعاً.

وجدت نفسي ملقى في بئر عميقة باردة المياه، أصارع فيها الموت أملاً في النجاة، ويبدو أني أجهدت نفسي كثيرا في المحاولة، فأرخيت جسدي مستسلماً للغرق ظنّا مني أنّها النهاية، وفجأة نزل من فوقي حبل طويل أخضر اللّون، أمسكته ورفعت رأسي لأرى من هو الشخص الطيب الذي سينقذني بعدما خارت قواي، لأفاجأ بكونها الحسناء "ميتروفا". لقد سحبتني بحذر خارجاً. كُنت قد تحسست وجود جرح كبير خلف رأسي، يمكن أن يكون سببه سقوطي بتلك البئر، فبادرت تلك الحسناء بمعالجته، ثم دنت مني وزادت. لدرجة أحسست فيها بأنفاسها الدافئة تداعب انحناء رقبتي، لم أتمالك نفسي فقمت بإغلاق عينيَّ وانتفضت من مكاني أصرخ وأنادي:

((لا تفعلي هذا يا "كريستينا"! من فضلك لا..))

ثم فتحتهما مجددا لأجد نفسي نائما على سرير كبير ومريح، تحت إنارة حمراء خافتة في غرفة هادئة، زادت من جمالها زخات المطر وحبات البَرد التي تتصادم على زجاج النافذة المجاورة لي، فما رأيته من أمر البئر كان مجرد حلم.

نظرت إلى الساعة الحائطية المعلقة أمامي، لأجدها السادسة مساءً، فتعجبت بأنّي غفوت كل هذه المدة من أثر تلك الضربة، وها قد تناثرت أسئلة كثيرة في بحر عقلي دون إجابات، حين وجدت نفسي ملزما بالحديث مع تلك الفتاة

الروسية، ومعرفة كل ما تنوي فعله معي، وعن الغاية من حمايتها لي من دون أي سبب وجيه يذكر! حاولت النهوض من فراشي فلم أقوَ على تحريك قدماي، وبينما أصارع من أجل الوقوف دخلت "كريستينا" الغرفة حاملة كأسا من العصير البارد، ثم قدمته لي وهي تقول:

((أنت لا تشرب النبيذ لذا أعددت لك بعضا من عصير الفواكه.. فجسدك مرهق ويحتاج بعض الفيتامينات لاستعادة نشاطه.. اشربه الآن لو سمحت.))

التقطت الكأس وسألتها:

((لماذا لا أستطيع تحريك ساقاي يا آنسة "ميتروفا"؟ وما الداعي لضربي بذلك المسدس اللعين بدل قتلي؟))

تقدمت "أنثى الشيطان" وجلست على يساري، ثم أخذت تمرر أصابع يدها اليمنى بين خصلات شعري واسترسلت تقول:

((لا تخف يا عزيزي.. كل ما في الأمر أنّني حقنتك بمخدر يدعى "البروبوفول" لمنعك من الفرار في حالة استفاقتك.. فأنت لم تثق بي بعد.. كما أنّك لم تستمع مني ما أردت إخبارك به داخل السيارة.. وحاولت الهروب.. لم

تترك لي أي سبيل سوى حقنك بهذه المادة.. أرجو ألا تتوتر فستعود عضلات جسمك إلى النشاط بعد حوالي عشر دقائق)).

***

كانت "كريستينا" محقة فعلاً، فقد أحسست بحرق على ذراعي وكأنّه لدغة نحلة، ولابد أن يكون سببه هو حقنة ذلك المخدر.

لا أخفي شعوري بنوع من الرضا عما سمعته منها، فكلامها بعث بداخلي قدراً من الاطمئنان وأزاح عن كاهلي ثقلا كبيرا، وكأني ألفت وجودها معي، فحديثها بذلك الأسلوب المميّز جعلني أشعر بالأمان الذي لطالما افتقدته، ويبدو أني لم أشبع فضولي بعد، فبادرت بسؤالها مجددا:

((ترى ما اسم ذلك المسدس وكيف حصلت عليه؟ ومن أين لك بمخدر "البروبوفول"؟))

لحظة سماعها لسؤالي قامت بالسخرية مني وقالت:

((أتستهزئ بي؟ كيف لشخص يمضي جل وقته يتصفح الانترنت الخفي ألا يعلم طرق المتاجرة بالأسلحة والمخدرات الممنوعة! ولكن رغم سذاجتك هذه فلن أبخل عنك بالإجابة.. فذلك المسدس يدعى pistolsمن نوع glock 17 9mm. أترغب في اقتناء واحد؟))

((لا.. لا.. لا أريد الحصول على أيّة أسلحة.. فلطالما كنت شخصاً مسالماً.. فلا تضليني عن طريقي وتحاولي زرع ثقافة القتل بداخلي.. فإنما سؤالي يدل على فضولي وفقط)).

ابتسمت لي "كريستينا" وقالت:

((حسنا.. حسنا.. لقد كنت أمازحك أيّها الشقيّ، فحتى من الموقع الإلكتروني Nucleus الذي اقتنيت منه بعضا من معداتي، قد أَغلق قسم بيع الأسلحة مباشرة بعد الهجمات على مقر الصحيفة الساخرة "شارلي إبدو" في "باريس"، خوفاً من تورط مالكه مع العدالة، ولم يبقى أمامنا من المواقع الإلكترونية الموثوقة لشراء الأسلحة سوى موقع Agora. على العموم أود منك الآن أن تستمع لي جيدا، فسأجيبك على كل الأسئلة التي تدور بداخلك، أريدك فقط أن تثق بي إن أردت النجاة، اتفقنا؟))

أجبتها بالموافقة دون حتى أن أفكر، فقد كنت في لهفة شديدة لمعرفة ما بجعبتها. لتتابع كلامها بجدية وهي تقول:

((المنظمة التي أنتمي إليها تعلم جيدا ما قمت به من استصغار لمكانتها.. فرغم تحويلك المبلغ المطلوب لقتل "خوسيه".. إلا أنّك قد خطوت خطوة إلى التهلكة بخطتك الغبية تلك.. فاختيار ضحية متوفاة مسبقاً يعد أمرا جريئاً

وفعلاً لا يغتفر.. حقيقة لا أدري بما سأصفك.. بلقب الرجل الشجاع.. أم بلقب الطفل الساذج!))

أردت استلطافها بطرافة بغية امتصاص غضبها، فقلت لها:

((لقب الرجل الشجاع أنسب لي.. فهو محبوب وسط الفتيات وخصوصا الشقراوات)).

ضحكت "كريستينا" كثيرا من كلماتي، ثم قالت:

((كفاك مزاحا أيّها الأحمق.. كيف لك أن تمارس الدعابة في حين باتت أيامك معدودة؟ ألا تعلم أن رئيس منظمتنا قد جن جنونه منك.. لدرجة تفكيره في التنكيل بك.. وبطريقة لم يسبق لأحد أن تعرض لها قبلك)).

نجحت "كريستينا" في إخراسي برد واحد منها، أحيت بواسطته الوسواس الذي يستوطنني، ليثار عقلي بحملة من التساؤلات، فقلت لها:

((تابعي أرجوك.. وأخبريني ما تقصدين بكلامك هذا؟))

سألتها والدموع قد امتلأت في مقلتاي من الخوف.

لتجيبني بنبرة يشوبها الحزن:

((مؤسف لي إخبارك بأنّ رئيسنا يسعى لبيعك بعد إمساكك مباشرة.. كصفقة مربحة لأحد المنظمات المتاجرة بالأعضاء البشرية.. والتي تتعامل

بدورها مع مجموعة من الأطباء غير الشرعيين الذين يمارسون نشاطاتهم في الخفاء.. فهذا النوع من النشاطات الممنوعة يعود على تلك المنظمات المشبوهة بأموال طائلة.. حيث تعرض أعضاؤك للبيع في سوق الانترنت المظلم تماما كالقطع الصغيرة للسيارات.. والأشد مرارة من هذا هو الخيار الثاني الذي يمكن لرئيسنا أن يتخذه بشأنك.. فقد تصبح مادة دسمة تعرض في أحد المواقع الإلكترونية الشبيهة بالغرفة الحمراء أو the red room)).

قطعت عنها كلامها مرتعباً:

((الغرفة ماذا؟ أتقصدين حقا الغرفة الحمراء؟ يا إلهي.. لقد سمعت عنها كثيراً)).

لتشير لي بيدها بأن ألتزم الصمت، ثم تابعت شرحها وهي تقول:

((هناك سيتم التصويت على قتلك.. من طرف المشتركين المخفيين حول العالم، بعد تعذيبك بأبشع الطرق والأدوات.. وهذا مقابل دفع مبالغ مالية كبيرة تحوّل إلى إدارة الموقع "بالبيتكوين".. لا شك أنّ أغلب التصفيات الجسدية بين منظمات القتلة المأجورين والزبائن قد تُحال إلى خدمة المواقع الإلكترونية الشبيهة بالغرفة الحمراء.. وهذا في حالة عدم الالتزام بشروط الاتفاق والعقد المبرم بين الزبون والإدارة.. كالإفصاح عن أسرار الصفقة مثلاً..

أو عدم الدفع الكامل للمبلغ بعد تنفيذ عمليات القتل.. وأيضا في حالة التلاعب بسياسة المنظمة المنتهجة كما فعلته أنت.. وأنا نفسي لن أستسيغ أن يحصل لك مثل هذا الأمر.. فعملي بهذه المنظمة لا يقتصر على القتل أبدا.. كون أغلب مهماتي هي قيادة المركبات وتقفي أثر الضحايا.. وأيضاً جمع بعض المعلومات الهامة عنهم للوصول إليهم.. فلم أجرؤ في حياتي على قتل حيوان فما بالك بإنسان!))

((حتى المشاركة في الحصول على معلومات الضحايا يعتبر جريمة لا تغتفر.. آسف ولكن أشباهك حبذا لو يتم رميهم في مزبلة التاريخ!))

قلت كلامي هذا بقسوة وبلهجة شديدة، فسردها لتلك الوقائع جعلني أفقد صوابي، فبعد أن كنت أستعطفها لتخلي سبيلي، ها قد فقدت ما تبقى لي من عقل، وأصبحت أستهدف مشاعرها مباشرةً. فأنا الآن عبارة عن جسد بلا روح هائم وسط عالم من المجرمين والسفاحين والمضطربين عقلياً.

***

بدأت الدموع تنهمر من عينيها تأثرًا منها بكلامي القاسي، ولكنها تابعت حديثها:

((أنت محق في كلامك يا "**قيصر**".. أنت محق.. ولكنني نادمة الآن أشد الندم.. وأريد الهروب من هذا الجحيم الذي حرمني من العيش كأقراني من الفتيات..))

شعرت بالأسف على "كريستينا"، فأحسست وكأنّ دموعها المتساقطة، تخفي عني جزءا كبيرا من ماضيها، فسألتها بحزن:

((احكي لي.. كيف انضممت إلى هذه المنظمة الإجرامية؟))

زفرة بقوة ثم قالت:

((بكل تأكيد.. مع أنّه لم يسبق لي وتحدثت في هذا الأمر مع أحد من قبلك.. لقد ولدت من أم عازبة وعشت حياتي في ملجئ للأيتام بمدينة "أكساي" الروسية.. وبعد تجاوزي سن المراهقة تم بيعي ونقلي إلى الولايات المتحدة الأمريكية كراقصة في إحدى الحانات.. ولم أبقى هناك كثيرا حتى تم شرائي من طرف هذه المنظمة التي أعمل لصالحها.. وكان السبب في هذا هو أحد الزبائن الذي اعتاد زيارتي في الحانة لإمضاء الليل معي.. لقد كان الرئيس نفسه.. دون الإطالة فقد تم تدريبي في أماكن سريّة على حمل السلاح واستخدامه.. صدقني يا "**قيصر**" لم أكن حرّة منذ ولادتي البتة.. لطالما استعبدوني وسخّروني لخدمتهم.. فغدوت الآن مجرمة صغيرة في سن الثالثة

والعشرين رغماً عن أنفي.. فإن اعترضت أوامرهم قاموا بقتلي.. وإن قمت بها أنبني ضميري.. عزيزي "الشيف" أرجوك تعاون معي، فكل ما أريده الآن هو حمايتك ونفسي من شرهم.. فمن يدري متى سيحين دوري للموت على أيديهم..))

سألتها قائلا:

((وماذا تقترحين؟))

((أقترح عليك أن نهرب سويا ونغادر الأراضي الكندية قبل أن يقتلوننا.. فلو اكتشفوا أمري الآن ستكون نهايتي وشيكة.. ولن تختلف في تفاصيلها عن نهايتك.. "**قيصر**" إني أغامر بحياتي الآن ولن أتراجع أبدا.. كوني أرى النجاة في هذه الفرصة.. التي ينبغي لها أن تحررني من العمل لمصلحة هذه العصابة.. أما عن أموالهم ...فلتذهب إلى الجحيم فمنذ انضمامي لهم لم أستمتع قط بدولار واحد مما جنيته.. فتأنيب الضمير يسيطر على تفكيري كل لحظة.. وكوابيس الأشخاص الذين ماتوا بسببي لازالت تراودني ليلا ونهارا.. ما عساي أن افعل الآن؟ أخبرني أرجوك؟ فلم أعد أقوى على...))

وانفجرت بالبكاء والنحيب. لأجد نفسي ودون وعي مني، أدنو منها بجسدي المخدر وأحتضنها في محاولة لتخفيف معاناتها، فمواساة بعضنا البعض

أصبحت ضرورية لكبت الألم الذي تمكن منا.. وأصبحنا بسببه نتشارك أحزاننا ذلك المساء.. كسجينين محكوم عليهما بالإعدام.

عادت قدماي للحركة بعد أن زال مفعول "البروبوفول"، والذي لم يستمر طويلا تماما كما أخبرتني "كريستينا"، لذا قمت من مكاني وجاورت هذه الحسناء الروسية في الجلوس على طرف السرير. وضعت يدي على كتفها وسألتها:

((كيف لي أن أثق بك؟ لماذا قررت الآن الهروب من العصابة؟ وما شأني أنا لتقومي بحمايتي؟))

استخرجت "كريستينا" إحدى المناشف الورقية المعطرة من محفظتها، قامت بمسح دموعها، ثم استدارت لي واقتربت مني كثيرا، فشعرت بالتوتر يسري في داخلي، ما أثارني وجعلني أستجيب لها. ألقتني على السرير ودنت مني برفق، فأغمضت عيناي خجلا منها، قربت شفتاها من أذني وهمست لي وهي تقول:

((ألا يمكنك أن تصدق هذه العيون الزرقاء الحزينة؟))

ثم أضافت بجدية:

((منذ عملي مع هذه العصابة اللعينة.. لم أقتل شخصا واحدا بيديّ هاتين وهذا ما أثار ريبة المجموعة التي أنتمي إليها.. لذا أزمع رئيسنا أن يوكلني مهمة قتلك بعد الإمساك بك.. وهذا إذا ما فشلت صفقة بيعك لتلك العصابة المتاجرة بالأعضاء البشرية.. وشاءت الصدف أنّك غيرت مكان إقامتك وانتقلت إلى هنا.. وهذا ما عجل عليّ الأمر في إنجاز مهمتي، كوني أقطن حالياً بمدينة "كيبك".. لذا قام الرئيس بتوكيلي إدارة "الكازينو" الذي اعتدت أنت على زيارته.. فقد كانت الخطة تقتضي أن أسحبك من المطعم نحو صالة القمار أين سيتم الإمساك بك هناك.. وفي كل مرة أريد اختطافك فيها وأرسلك إلى الرئيس.. تراودني أحاسيس مخيفة بأن صفقة بيعك لن تنجح.. وسينتهي بي الحال إلى قتلك وهذا ما لن أقوى على فعله أبداً.. لذا تراجعت كثيرا عن فكرة اختطافك..))

قاطعتها قائلا:

((ألم يسبق لك وأن فكرتي في الهروب.. والتخلص من هذا العمل المقزز؟))

فكان ردها سريعا، حيث قالت:

((لقد أردت حقا الفرار من هذه العصابة.. ولكني لم أجد الفرصة المناسبة لفعل ذلك.. فعمدت أوّلا إلى معرفتهم عن قرب.. حتى يتسنى لي كشف نقاط

ضعفهم جيدا.. قبل إقدامي على أي خطوة متهورة.. ولكن بظهورك المفاجئ هذا والذي وضعني أمام الأمر الواقع.. قررت المخاطرة بحياتي والإسراع بالهروب من المكان القذر الذي أعمل به.. ولما لا إنقاذك أنت أيضا.. عسى أن يزيل فعلي هذا جزءا بسيطا من ذنوبي التي اقترفتها وراح ضحيتها أناس أبرياء لا حول لهم ولا قوة)).

***

دفعت كريستينا إلى الخلف حتى أستطيع تجنب تلك الوضعية الحميمة، ثم تناولت بيدي كأس العصير من على الطاولة وشربته دفعة واحدة. فقد شعرت بعطش مفاجئ وتعرق لا إرادي نتيجة خوفي على حياتي، فلا أزال شاباً في مقتبل العمر، كيف لي أن أموت الآن بهذه الطريقة ولم أحقق أحلامي بعد، حتى من كأس العصير لم أستمتع بتذوقه وكأني أشرب الماء، فحياتي على المحك ولا مجال أمامي الآن سوى أن أثق بهذه الشابة. عسى أن تنقذني من المحنة التي وضعت نفسي فيها، لذا قمت بسؤالها مجددا:

((وما هي خطتك التي ستنقذنا؟))

وقفت الآنسة "ميتروفا" خلفي ثم وضعت يديها على كتفاي، وبدأت بتدليكهما لي وهي تقول:

((كما ذكرت لك سابقا عزيزي "**قيصر**".. فخلال فترة عملي بالمنظمة اكتشفت هناك مفتاح النجاة.. تأكد أنّك مهما فررت منهم سيجدونك ويقتلونك في أي مكان تختبئ فيه.. فمنذ خمس سنوات تقريباً ارتكب عضو جديد في المنظمة خطأ جسيماً.. وهذا أثناء قيامه بمهمة تصفية رجل صيني يعيش "بتايلاند".. فقد أخطأ الهدف وقتل أحد أبناء الشخصيات الدبلوماسية المرموقة.. ليتم الإمساك به من طرف الشرطة التايلندية.. فاعترف بكل شيء عن رفاقه ما جعل المنظمة توقف نشاطها لبعض الوقت.. وتلغي أي مهمة لها على مستوى التراب التايلندي.. ولهذا سيكون أمر قتلنا مستبعداً.. إن استطعنا السفر إلى هناك في أقرب وقت ممكن)).

بدأت الأمور بالاتضاح لي رويداً رويداً، ولكني لم أشبع فضولي بعد، فسألتها مستغرباً:

((تبدوا فكرة مذهلة! ولكن كيف لنا العيش هناك.. فأنا مفلس حاليا ولا أملك الكثير من الأموال!))

أجابتني وهي تبتسم:

((أنت محق فبمجرد سحبي أنا أيضا لمبلغ كبير من أموالي المخزنة في البنك.. سيراود رئيس منظمتنا الشك ما يضعني في خطر حقيقي.. كما تعلم أنا أزاول

حياتي بوثائق مزورة.. وحتى من بطاقتي البنكية فهي ملكي بالاسم فقط.. فرقمها السري فقد مفعوله بما إنه مسجل في دفتر الرئيس.. فلا يحق لي سحب أموال كثيرة إلا بموافقته وبترخيص منه شخصيا.. مع توضيحي للغاية التي دفعتني للسحب.. فكوني تابعة هنا أمر مذل تماما.. ولهذا فقد خطرت ببالي فكرة مجنونة، سنجني من خلالها أموالا طائلة في فترة لن تتعدى العشرون يوماً!))

لم أتمالك نفسي وصحت:

((عشرون يوما!! ترى ما طبيعة هذه الفكرة العظيمة؟ أخبريني بها الآن.. فقد أمضيت فترة شبابي باحثاً عن طرق جني المال والربح السريع.. ولم أفلح في ذلك قط!)). اقتربت "كريستينا" من النافذة وفتحتها، ليدخل نسيم عليل يحمل رائحة الأمطار إلى الغرفة، أنعشني وأعاد لي الأمل في الحياة مجددا، ثم التفتت لي وقالت:

((أراك مهتما الآن. أريدك أن تعلم أن الفكرة عظيمة حقا وسهلة التنفيذ.. ولكنّها مغامرة حقيقية تستحق المجازفة، وفي موقفنا هذا لا يوجد أمامنا من خيار آخر لنخوضه..))

تنهدت قليلا ثم استرسلت تقول:

((الوقت متأخر الآن ومكوثنا معا طويلاً سيثير الريبة من حولنا.. لذا انصرف حالاً وعد إلى المطعم.. وغدا لنا لقاء هنا في الفندق على الساعة العاشرة صباحاً.. وتذكر ألا تتأخر.. لأنّنا سنسرع بتنفيذ الفكرة التي ستوفر لنا المال الكافي للهروب إلى "تايلاند".. فالوقت يداهمنا ولا مجال أمامنا لنماطل)).

***

من الأفضل مجابهة الخطر مرة واحدة بدلا من البقاء دائماً في خوف وهلع.

"مثل إنجليزي"

الفصل الخامس: موعد في الجحيم

مرَّت تلك الليلة البئيسة وكأنّها سنة، بعد أن شغلني التفكير حول ما سيؤول إليه مصيري إذا ما نجحت في السفر إلى جنوب شرق آسيا، بصراحة قد انتابني اكتئاب كبير وحنين للعودة إلى بلدي، وتأسفت على تضييعي فرصة العمل في "حاسي مسعود"، وندمت حقا على اقتحامي ذلك الموقع الإلكتروني اللعين، وحزنت على تضييعي لمبلغ كبير من المال، مقابل متعة قد تنتهي بموت، تمنيت لو أن الماضي يعود لأغير ما أستطيع تغييره من أحداث، ولأتدارك الكثير من الأخطاء التي أوقعتني فيها سذاجتي وقلة حيلتي، لكن هيهات.. فلا مجال للهرب من هذا القدر، فأنا الآن ملزم بضبط نفسي، وإعادة جمع أفكاري المبعثرة. أشرقت الشمس وأنا على تلك الحال، قمت للوضوء وصليت صلاة الصبح، داعيا الله فيها أن ينجيني من هذا الكابوس المرعب، أعددت

فطوري ونزلت إلى المطعم لأتفقد وضعه، فقد كثر غيابي عنه في الآونة الأخيرة وهذا ما لاحظه زملائي، وكما جرت العادة طلبت من مساعدي "كيفن" أن يسير المطعم هذه الفترة الصباحية، وأخبرته بأني على موعد مع شخص مهم ثم انصرفت.

بعد ضبطي لأمور المطبخ، ركبت السيارة وانطلقت إلى ذلك الفندق وكلي شوق لأراها، وقد وصلت قبل الموعد بعشرة دقائق، وهذا ما استحسنته "كريستينا" التي كانت منضبطة جدا في مواعيدها، فعند دخولي إلى الغرفة وجدتها تتصفح أحد المواقع الإلكترونية على النت الخفي، التفتت لي وطلبت مني إحضار كرسي والجلوس بجوارها فهي بصدد تنفيذ الفكرة.

لم أستطع فهم ما تقوم به، لذا طلبت منها أن تشرح لي ما يدور في رأسها الآن، وما طبيعة الخدمات التي يقدمها هذا الموقع الإلكتروني.

التفتت لي وأعطتني قطعة من الكعك وكوباً من القهوة وقالت وهي تقهقه:

((قبل أن أشرح لك الأمر.. عليك أوّلا أن تحتسي معي بعضا من القهوة فلن تتمالك أعصابك من الفرحة مما ستشاهده الآن.. فـ"أميريكانو" قهوة مفيدة لأمثالك في مثل هذه الحالات)).

ولكنني قاطعتها قائلا:

((أرجوك كريستينا وضحي لي الأمر أكثر)).

لتقف من مكانها وتبدأ بالشرح وكأنّها إحدى الأساتذة المحاضرين، وأنا طالبها الفضولي الذي ينتظر معلوماتها بشغف. فقالت لي:

((هذا الموقع الإلكتروني عزيزي "**قيصر**".. يسمح لك ببيع مبلغ من نقودك الأصلية.. مقابل حصولك على أضعاف مضاعفة منها.. ولكنها على صيغة مزورة بطريقة احترافية للغاية.. ما يجعل أمر اكتشافها شبه مستحيل.. وقد وضعت كافة الاحتمالات في حالة ما تم التفطن لنا)).

بدت لي الفكرة غير معقولة البتة، فسألتها مستغربًا:

((يبدو الأمر رائعا وفي نفس الوقت غريباً جداً.. ترى ما نوع الاحتمالات التي وضعتها في خطتك هذه؟))

لتجيبني على سؤالي:

((حسنا يا "**قيصر**".. ففي حالة ما تم التفطن لأمر التزوير لن يمسنا الضرر أبداً.. كما تعلم فطبيعة عملي في منظمة إجرامية.. جعلتني أتنقل بوثائق مزورة عديدة.. فاسمي الحقيقي هو "كريستينا".. ولكني سأستخدم هوية

مزيفة في عملية بيع النقود، والتي أدعى فيها "ديانا".. وبالتالي سأضلل أفراد الشرطة الكندية ومكتب التحقيق الفيدرالي FBIفي حالة ما تم التفطن لأمري)).

انبهرت لهذا ثم قاطعتها قائلا:

((مهلاً.. مهلاً.. وماذا عني؟))

((لا تهتم كثيرا.. فبما أنك "هاكر" مبتدئ سأتكفل شخصياً بتوفير هويتك المزورة.. وسيكون هذا في ظرف وجيز!))

سألتها مجددا:

((يبدو أنّك تعي جيدا ما تقولين.. فماذا لو سافرت بهويتي الحقيقية؟))

زفرت كريستينا زفرة قوية، ثم قالت:

((سيكشف أمر سفرك للعصابة أيّها الذكي.. كما تعلم فأغلب المنظمات الإجرامية تمتلك رجال أمن من المطارات يعملون معهم في الخفاء.. وسيدلونهم بأي معلومات تخصك في حالة حجزك لرحلة ما إلى أي بلد في العالم.. ولكن لا تخف فلن أشركك في أي نشاط مشبوه.. بصفتك معاوني

وشريكي في السفر لا أكثر ولا أقل.. وبوصولنا "تايلاند" ستأخذ حصتك من الأموال.. فهل كلامي واضح؟))

تعالت ابتسامة عريضة على وجهي، وأبديت ارتياحي لما تقوم به الشابة الروسية من جهود جبّارة، فالفكرة عظيمة حقا وهذه "الميتروفا" تبدو واثقة جدا فيما تفعله، ما جعلني أرتاح لها، ولكن فضولي لم يرتوِ عند هذا الحد، فاستفسرت عن نسبة الأرباح التي سنجنيها من صفقة بيع الأموال التي اقترحتها، فأجابتني قائلة:

((يبدو أنك مصر على المعرفة.. حسنا سأخبرك ولكن عليك كتمان هذا الأمر وجعله سر دفين بيننا نحن الاثنين.. ولعلمك يا عزيزي فإن بيع مائة دولار أصلية فقط يقابله شراء حوالي ثلاثمائة وخمسون ألف دولار مزورة.. فما رأيك الآن؟))

((يا إلهي ما هذا النوع من البيع؟ يبدو الأمر مربحا للغاية بل ولا يتطلب أي جهد بدني على الإطلاق.. كم أنت عبقرية يا "كريستينا!"))، أجبتها منبهرًا.

وفجأة استدارت لي وأمسكتني من أذني وبدأت بالضغط عليها بعنف وهي تقول:

((من هي "كريستينا" أيها الأحمق؟))

لأرد عليها:

((آاااه.. اتركيني.. لقد نسيت يا آنسة "ديانا" أنا آسف حقا اعذريني أرجوك)).

في هذه اللحظة الفكاهية التقت أعيننا مع بعض، وخيم الصمت بيننا، فتحول الموقف من الطرافة إلى الرومانسية، حين طبعت لي تلك الروسية قبلة سريعة على خدي الأيمن، أيقظت بها وحش الحب الذي يرقد بداخلي، لأجد نفسي متسمرًا مكاني دون حراك، مذهولاً من المنحى العاطفي الذي أخذه بنا الحديث.

***

إنه مساء يوم الأحد.. وها قد مضى على لقائي الأخير بالآنسة "كريستينا" قرابة الأسبوعين، ولم أتلقَ منها أي اتصال بعد، فخفت من أن مكروها ما قد أصابها، لذا قررت العودة إلى ذلك "الكازينو" للبحث عنها، فقد اشتقت إليها فعلاً، ولن يحدث شيء إن ألقيت نظرة سريعة هناك. ركبت سيارتي واتجهت صوب المكان الذي جمعنا به أوّل لقاء، وبمجرد دخولي صالة البوكر قابلني شخص مجهول يرتدي بذلة غريبة، تجسد الشخصية الكرتونية "لهومر

سيمبسون"، وحالما رآني قام باستخراج مسدس ناري وصوبه نحوي مباشرة. صراحة لو لم أكن ملاحقاً من طرف تلك العصابة لاعتبرت الأمر طبيعياً، وكأنّه نوع من الكوميديا لإضفاء بعض المرح على "الكازينو"، ولكن في حالتي هذه كنت على يقين من جدية الموقف، فتركت غريزتي البشرية في البقاء حيا تتدخل لتنقذني.

لم أذكر حتى كيف هرولت مسرعا إلى باب الخروج، متفاديا طلقتين من ذلك المسدس اللعين، ولكني انتبهت لأمر غريب، فقد بدا واضحا لي وكأنّ الرجل المسلح لم يكن ينوي قتلي. فمن الغرابة إخطاؤه لهدف قريب منه بهذه البساطة. يبدو وكأنّه عمد على إخافتي فقط. لقد مضى الأمر كله في رمشه عين، وفور وصولي إلى سيارتي قمت بقيادتها بسرعة، واتجهت بها إلى منطقة مجهولة بعيدا عن أعين الناس. مقرراً عدم الخوض في الأمر مع "كريستينا". لقد كنت في مأزق حقيقي نجوت منه بأعجوبة، فبعد ابتعادي كثيرا عن ذلك "الكازينو"، ضللت طريق العودة إلى المطعم، لذا قررت ركن مركبتي، والاستعانة بسيارة UBER للوصول إلى مقر إقامتي، فهذه الخدمة الرائعة يجسدها تطبيق هاتفي مميز، يمكن بفضله طلب سيارات خاصة وعصرية للنقل، انطلاقا من

منخفضة التكلفة مثل UBERxl، وصولا إلى باهظة التكلفة كسيارات UBERblack، أما طريقة الدفع فليست بالنقدية البتة.

سجلت طلبي على التطبيق الهاتفي، وقد أظهر لي نظام تحديد الموقع GPS على شاشة الهاتف، بأن السائق سيستغرق عشرة دقائق فقط للوصول. ومن المؤكد أن العصابة قد تعرفت على نوع سيارتي ولوحة ترقيمها، وقد أغامر بحياتي لو عدت بها مجددا لمكان عملي، لذا كان من الذكاء الاتصال بخدمة UBERلسلوك طريق العودة، وقبل أن أتحرك من مكاني، تلقيت اتّصالاً مفاجئا من رقم مجهول، ولكن توتري منعني من الإجابة عنه، فاستمر الهاتف بالرنين عدة مرات ثم توقف، لتصلني رسالة SMS من نفس الرقم جاء فيها:

((عزيزي "الشيف".. أنا صديقتك "ديانا".. أرجوك كلمني فورا فالأمر مهم)).

في هذه اللحظة بدأت أستعيد أنفاسي، وزادت رغبتي لسماعي صوتها، فاتصلت بها فورا.. وما دار بيننا من حديث زاد من وتيرة قلقي عكس ما توقعته، فقد طلبت مني تجنب العودة إلى المطعم فهو مراقب، بعد أن تم كشف تواطئنا مع بعض، وطلبت مني انتظارها بجانب منتجع Montmorency Falls Park الذي سبق لنا زيارته، ونصحتني بالتخلص من المركبة كي لا

تكون سببا في لحاقهم بنا، وقبل إنهائي للمكالمة الهاتفية، وصلت سيارة UBERxl التي استدعيتها، لذا لم يكن بيدي من حيلة سوى توجيه سائقها إلى المنتجع، وانتظار وصول "كريستينا".

مرت ساعة من الزمان، خيم فيها الليل وبدأت زخات المطر بالهطول عازفة سيمفونية طبيعية مع صوت الشلالات المهيب، خرجت من سيارتي ووقفت على حافة الطريق أنتظر قدوم الشابة الروسية، وبالطبع فقد أتت في موعدها ولكن على دراجة نارية حاملة معها حقيبة سوداء. توقفت أمامي وأشارت لي بالصعود دون أن تنطق ببنت شفى، فارتديت الخوذة وتمسكت بها من الخلف جيدا، لتنطلق بدورها مسرعة، ولم تلبث حتى سلكت طريقا ضيقا بين أزقة أحد الأحياء الخاوية.

سألتها عن سبب اختيارها للدراجة النارية، فأخبرتني بأنّها الوسيلة المثلى التي تستخدم في المطاردات، ليتبين لي من كلامها أن ناقوس الخطر قد دق أخيراً، ولا مجال للتراجع الآن فإما النجاة أو الموت، صراحة لم يكن يخطر ببالي أبدا أن يتم إنقاذي من طرف أحد أفراد العصابة ذاتها التي تسعى لقتلي! لقد كان أمراً يصعب تصديقه حقا.

بينما سرح عقلي في التفكير، توقفت كريستينا أمام فندق كبير، وطلبت مني النزول والحرص على التصرف بشكل طبيعي، مدعية أن هذا الفندق هو المقر السابق لاجتماعات المنظمة الإجرامية التي تنتمي إليها، وقد بررت اختيارها لهذا المكان قصد إمضاء الليلة به، كونّه المنطقة الوحيدة التي يستبعد أن نتواجد بداخلها، وشبهت وضعنا الحالي وكأننا داخل إعصار قمعي، داخله هدوء وأمان وخارجه تنتشر رائحة الموت، لقد كانت فلسفتها في الحياة غريبة، ولكني أعجبت بها كثيراً.

تمكنا أخيرا من حجز غرفة لشخصين تحمل الرقم تسعة عشر، وبعد وجبة العشاء والتي فضلنا تناولها في الداخل، تقدمت "كريستينا" لحقيبتها السوداء وقامت بفتحها، ثم نادتني لأرى ما بداخلها، فلم أتوانَ في إلقاء نظرة عليها، لأفاجأ بالدولارات مكدسة فوق بعضها البعض، مزيحة الستار على مبلغ مالي ضخم أسال لعابي.

جلست "كريستينا" بجانب الحقيبة ثم قالت:

((أتعلم يا عزيزي "**قيصر**"؟ لقد نجحت في شراء مبلغ ضخم من النقود المزورة من ذلك الموقع الإلكتروني.. وقد تم هذا على مراحل متقطعة كي لا

أجلب الشك.. لهذا تركتك تنتظرني لأكثر من أسبوعين.. أرجو أن تعذرني فقد كدت أن أتسبب في قتلك!))

أشرت لها بدهشة بأن تتابع حديثها دون أن أرد عليها. فباشرت في الحديث والحزن يغشى وجهها:

((للأسف نجحت العصابة في التفطن لأمري حتى بهذه الهوية المزورة.. وقد عطلوا حسابي البنكي الثاني الذي كنت أنوي أن أحول إليه أموالي.. ولهذا سنضطر لتهريب كل هذه الدولارات المزورة إلى "تايلاند".. واستبدالها بعملة أخرى أصلية في أحد الأسواق السوداء التي أعرفها هناك.. فقد سبق لي زيارة هذا البلد عدة مرات)).

لأرد عليها بغضب:

((ألا يكفي ما نحن عليه الآن من نوائب حتى تهربي ثروة كهذه.. إنّكِ تعقدين الأمور بهذا الشكل.. فماذا لو تم إمساكنا؟ سيكون الموت أهون لي من إمضاء بقية حياتي في السجن! وعلى فكرة.. لماذا لا تحولين هذه الأموال إلى حسابي البنكي الخاص؟))

فاجأتني "كريستينا" باستهزائها من كلامي، وقالت لي:

((هون عليك يا صاح.. هون عليك.. المال زينة هذه الحياة، فمن يضمن لي بأنّك لن تخدعني وتهرب بكل هذه الثروة لحظة وصولك إلى "تايلاند"؟ صدقني فالأمر لا يستحق كل هذا القلق.. لدي خطة عظيمة للنجاح في هذه المهمة!))

((وما هي خطتك هذه؟))، سألتها بنبرة يسودها التوتر.

لترد عليا بابتسامتها الجميلة المعتادة:

((سنمضي الليلة نلف الدولارات إلى قطع صغيرة جدا... ثم نخفيها داخل حذائي الكعب العالي هذا.. فقد اشتريته خصيصا لإنجاح هذه المهمة.. فتجويفه الداخلي كبير جدا.. وإن حالفنا الحظ سيتسع لتخزين معظم المال الذي بحوزتنا.. لقد تحققت من الأمر قبل أن آتي إليك لأصطحبك إلى الفندق)).

استطاعت هذه الروسية أن تقنعني بخطتها الذكية، فظهرت على وجهي بوادر الارتياح إزاء هذه الفكرة المجنونة، ومن شدة الفرح والتفاؤل قمنا من مكاننا واحتضنا بعضنا البعض، واستهللنا الضحك والرقص بشكل هستيري، فمتعة المال والثروة قد تتجاوز أحيانا جدار الخوف، لتضمك في صفوف المغامرين.

***

حَلَّ الصباح حاملاً معه نسيماً من الأمل والتفاؤل، فبعد أن رتبت أغراضي، توجهت نحو "كريستينا" لإيقاظها من نومها، ويبدو أن التعب قد أنهكها ومنعها من الاستفاقة باكراً، خصوصا أنها عانت أكثر مني في لف تلك الدولارات، ووضعها في تجويف حذائها الخاص، كان أوّل شيء تطلبه مني بعد استيقاظها مباشرة، هو البقاء في الغرفة وعدم النزول للفطور، فستتكفل بنفسها لإحضاره من الخارج تداركاً لأي شبهات، لذا تركتها تخرج فيما قمت أنا بتشغيل الموسيقى الملحمية التي اعتدت على سماعها أثناء تصفحي الانترنت الخفي، وتدعى Requiem For A Dream، فغالباً ما تشعرني أنغام آلة الكامينجا فيها بإثارة غامضة تمدني بالقوة والثبات.

فتحت كمبيوتر كريستينا المحمول، واتخذت الإجراءات المواتية لإخفاء هويتي، ثم دخلت إلى ذلك العالم المظلم مجددا، لأتصفح أي أخبار جديدة تناقلتها منظمة القتلة المأجورين التي تسعى خلفنا، فتحت حسابي هناك والذي أنشأته سابقا وبدأت البحث. كان كل شيء على ما يرام، إلى غاية ظهور نافذة تحميل أمامي لم أستدعها مطلقا، تجاهلتها وحاولت التخلص منها إلا أنها أبت، فتذكرت بأنّ هويتي الحقيقية مخفية، لذا لم أجد من مانع في تحميلي لها، وبكل بساطة قمت بالضغط على زر ok، ليبدأ المحتوى بالنزول تدريجيا

على سطح المكتب، فصلت الانترنت عن الكمبيوتر كما جرت العادة، تجنباً لأي خطر اختراق قد يصيبني من طرف "الهاكرز"، ثم تفحصت ذلك الملف الذي قمت بتحميله، والذي كان من نوع text، فلم أتردد في فتحه، لأفاجأ برسالة إنجليزية جاء فيها:

((عزيزي "**قيصر**".. عزيزتي "كريستينا".. لقد اشتقنا لكما كثيرا.. ترى كيف أحوال الغرفة تسعة عشر؟ أظنها تحتاج لبعض التطهير.. مع السلامة.. تقبلا تحيات صديقكما الجديد "الأرنب".))

تملكني الفزع وسقطت أرضا بعد قراءتي تلك الأسطر.

((أيعقل أنهم قد اكتشفوا مكاننا بسرعة وبهذه السهولة؟ لقد حجبت عنواننا فكيف لهم بالوصول إليه؟))، تساءلت في داخلي مرعوباً لما حدث. وبينما أخمن في الهروب من هذا الفندق، سمعت خطوات أقدام مجهولة تتقدم نحو الغرفة، ثم توقفت أمام الباب وتوقف قلبي معها من الخوف، بدا لي وكأن شخصاً ما يحاول الدخول، فأسرعت إلى نافذة الفندق مقررا القفز، في حالة ما ظهر أي أحد يريد قتلي، وقبل أن أخطو تلك الخطوة، تمكن ذلك الغريب من اقتحام الغرفة، ومعه تجمدت الدماء في عروقي وشعرت بالإعياء

والاختناق، التفتت ببطء جهة الباب يائساً مسلماً أمري لله، ليتضح لي بأنّ ذلك الغريب ما هو إلا "كريستينا"، قد أتت حاملة معها سينية الفطور.

لم أعلم حينها ما أفعله فقد اختلطت عندي مشاعر الخوف بالفرحة. حقيقة لم أرغب بأن أبدو جباناً أمامها، فاسترجعت أنفاسي واقتربت منها داعيا إياها للجلوس. سألتني عن سبب تبدل ملامحي والإعياء المفاجئ الذي ظهر علي، فأخبرتها بما حدث، لتشتعل شرارة الغضب داخلها، وتبدأ بلومي وتوبيخي على استخدامي حاسوبها الخاص دون إذنها.

تبين لي من حديثها بأنّ ذلك الكمبيوتر قد تم منحها إياه من طرف تلك المنظمة الإجرامية، وفي حالة ما إذا شغلت شبكة الانترنت عليه سيتم اكتشاف مكانها بسهولة تامة، فهي نفسها قد عزمت التخلي عنه مباشرة بعد نسخ بياناتها الخاصة منه، خصوصا بعد اكتشاف أمر خيانتها لتلك العصابة. قمت إليها واعتذرت فتجاهلتني، ولكن الوضع لم يدم هكذا، فقد قامت إلى حقيبتها واستخرجت بطاقة هوية وجواز سفر مزورين، ألقتهما أمامي وقالت:

((من الآن فصاعداً أنت شاب أمريكي تدعى "جايسون"!))، ثم أنبتني على نسياني لإحضار حاسوبي المحمول، وطلبت مني القيام لارتداء ملابسي

والاستعداد للرحيل، فموعد انطلاق الطائرة من "كيبك" إلى "بانكوك"، سيكون اليوم على الساعة الواحدة زوالا.

***

وصلنا إلى المطار في الموعد المحدد، وكم كانت نبضات قلبي تتسارع كلما مرَّ من أمامنا رجال الأمن، فرغم ترحيبي بحيلة تهريب الأموال، إلا أنّني لم أرتح لأمر الهويات المزورة، فإن صادف وتم اكتشافنا فستكون النهاية!

مررنا على الحاجز الأمني بهدوء ثم أتممنا بقية إجراءات السفر الجمركية، وصعدنا إلى الطائرة، كنت أنتظر موعد التحليق بشغف، فالبقاء في "كندا" الآن أصبح بمثابة الموت في اليوم مائة مرة. لم أكن قادرا على إخفاء قلقي وتوتري، عكس "كريستينا" التي تبدو مرتاحة جدا وواثقة من نجاح سفرنا، وبمجرد تحليق الطائرة شعرت بنوع من النشوة والحرية.

أمضيت فترة الرحلة متفحصا هاتفي الذكي، فتارة أشاهد فلما كوميديا، وتارة أخرى أستمتع بمقاطع الموسيقى الكلاسيكية الهادئة، فحتى من الكتب التي أنهيت مطالعتها سابقا، عدت أكرر قراءتها من جديد، رغم كرهي لصيغة PDF وميولي للنسخ الورقية. وبعد مضي وقت طويل من إقلاعنا، وصلنا أخيرا إلى العاصمة "بانكوك"، استدارت لي "كريستينا" من مقعدها الذي

أمامي، وأشارت لي بعينها تعبيرا منها على نجاح خطتنا. بالنسبة لي فالخطوة الأولى قد سارت على أكمل وجه، أما موعد الاحتفال فلن يكون الآن، فلا زال ينتظرنا الكثير في هذا البلد.

كانت أوّل خطوة أفكر القيام بها على الأراضي التايلاندية، هي مكالمة والديَّ وإخبارهم عن مكان إقامتي الجديد، ولكن "كريستينا" نصحتني بالتريث وتأجيل ذلك إلى موعد لاحق، فحسبها.. السرية أمر ضروري جدا في موقفنا هذا، وفي المقابل قررنا البحث عن منزل مناسب للإيجار، ليكون مركزنا في تدبير أمر تلك الأموال المزورة التي بحوزتنا، وتحويلها إلى "البات" التايلاندي في السوق السوداء، فكثير من المغفلين هناك لن يستطيعوا التفطن لأمر تلك الدولارات المزيفة، فقد طبعت بإتقان شديد يصعب حتى اكتشافه من طرف رجال الأمن.

بعد إمضائنا ليلتنا الأولى في أحد الفنادق، اتفقت أنا و"كريستينا" صبيحة اليوم الموالي أن ننفصل في أحد المولات التجارية، على أمل أن نلتقي بعد ساعتين تقريباً في نفس المكان، وشددت اللهجة معي على ألا أتبعها أبدًا، كي لا نجلب الشبهات لأنفسنا، وحين سألتها عن مكان ذهابها، أجابتني بأنّها على

موعد مع أحد الأصدقاء القدامى المقيمين في العاصمة، وستقصده بغية مساعدتها في البحث عن مكان هادئ، بعيدا عن مراكز الشرطة لإيجاره مؤقتاً.

استبشرت خيرا لما قالته وجلست أحتسي بعضا من عصير المانجو في أحد أركان المول التجاري، وبما أني أعاني من رُهاب الأماكن المفتوحة والمزدحمة كهذه المدينة، فقد قررت استدعاء رفيقي الدائم، وهو كتاب "السباحة في بحيرة الشيطان"، للمتميزة "غادة السمان"، والذي استهواني منذ صغري، فلم أجد من مانع للغوص في بحر كلماته، علني أنسى ضوضاء السيارات في هذه المدينة الصاخبة، فرغم إتمامي لقراءته منذ مدة، إلا أني لازلت أستلذ تكراره مرة تلو الأخرى.

بعد حوالي الساعتين، عادت فتاة المواعيد "كريستينا" في الوقت المحدد، وهذه المرة كانت برفقة شخص آسيوي أسمر البشرة قصير القامة يدعى "تايكو"، والذي قدمته لي على أنّه صديقها الذي كلمتني عنه، مضيفة بأنّه استطاع توفير مكان جيدا لنا، للإقامة به داخل هذه المدينة الصاخبة. ففرحت لهذا الخبر وشكرته على مساعدته لنا، ثم وجهت سؤالي "لكرستينا" قائلا:

((آنسة "ديانا" هل موقع إقامتنا بعيد من هنا؟))

لتجيبني بثقة:

((عزيزي "جايسون".. المكان يبعد حوالي نصف ساعة فقط من العاصمة "بانكوك")).

ارتحت كثيرا لسماع هذا، ثم انتقلنا إلى سيارة المدعو "تايكو"، الذي وصل بنا بسرعة للمكان الذي سنقيم به، فقد كان سكنا غريباً حقا وفي منطقة خالية تماما من السكان، فكرت قليلا ثم عاودت سؤال "كريستينا" قائلا:

((ترى هل سيكون هذا المكان ملائما لإقامتنا؟ يبدو شاحباً ومخيفاً حقاً!))

((لا تقلق يا "**قيصر**".. فهذا المكان سيزيح عنا عائق الأمن وتدخلات الشرطة التايلندية)).

((ماذا؟ هل ذكرت اسمي أمام ذلك الغريب! لا بل وتحدثت عن الأمن والشرطة وكأنّنا مجرمان! هل أخطأت "كريستينا" التصرف؟ يا إلهي أرجوا ألا يتفطن "تايكو" لما قالته تلك الخرقاء الآن!))، كنت أحادث نفسي، وأدعو الله ألا نقع في مصيبة، نتيجة الخطأ الذي ارتكبته زميلتي.

قطع عني خلوتي بنفسي، شيء حاد وبارد وضع مباشرة على ناصيتي، فاستدرت خلفي لأتباين الأمر، لأجد "كريستينا" قد وجهت مسدسها نحوي مبتسمة لي، وقد تبدلت ملامحها البريئة من دمية جميلة إلى شيطانة آدمية.

اسودت الدنيا في وجهي لهول ما رأيت، فشعرت بالاختناق والضيق، وأخذت الرعشة تسري في جسدي، وبدأت دموعي بالنزول دون استئذان، فروحي تنسلخ مني تدريجيا الآن، ويبدو لي أن تلك الروسية لم تخطأ، بل نجحت في الإيقاع بي، واستدراجي وبإرادتي من "كندا" إلى "تايلاند"، كانت لحظة صعبة جدا، فقدت فيها كل قوتي وعزيمتي المتبقية، كيف لا وقد تم التلاعب بي كالدمية، لأصبح كالشاة التي تنتظر موعد ذبحها.. لقد خدعت!

التفتت إلى "كريستينا"، وقلت في محاولة يائسة للنجاة:

((أرجوك قولي لي أن كل هذا كان مزحة .. أرجوك!)).

((أنا لا أمزح مع الأغبياء أمثالك، لقد كان من المستحيل بيعك ونقلك إلى "تايلاند" كأسير، لذلك كانت خطتي هي استمالتك وجعلك ترحب بفكرة السفر بنفسك، فالأمر برمته خدعة يا عزيزي، ابتداءً من المسلح الذي لم ينوِ قتلك داخل "الكازينو"، وصولا إلى رسالة زعيم عصابتنا "الأرنب"، والذي ستنال شرف الحديث إليه ومشاركته لعرض مشوق ستكشفه لك الأيام المقبلة، وهذا قبل إنهاءه صفقة بيعك)).

سألتها مذعوراً:

((و. و. ماذاا سيحل بي بعد العرض؟))

رمقتني ببرودة وكأن الثلج يسري في عروقها، ثم قالت:

((ومن يدري ما يحدث بعد ذلك! فالزعيم قد رأف بك وفضل بيعك على قتلك، ولكن المشتري لا يعرف عن الرحمة شيء، فمن يدري.. ربما تكون "بانكوك" هي مقبرتك.))

كانت هذه العبارات آخر ما قالته لي تلك الشيطانة البشرية. قبل أن يصفعني ذلك الآسيوي بالرنق الذي بقبضته، فأرداني به صريعا. وليكون هذا آخر شيء أتذكره حينها.

***

فرق كبير أن تعيش في السجن وبين أن يعيش السجن فيك.

"نجيب الكيلاني"

الفصل: السادس: عندما يتحول الصياد إلى فريسة

بانكوك – تايلاند. السبت 19 سبتمبر 2015

((أشعر بالبرد.. يا الله ماذا حل بي؟ لماذا بلاطات الأرضية تتصاعد في السماء.. أم أنا من يطير في الجو؟ تبدو يدايّ طويلتان جدًا.. وكأنهما حبلان يمتدان دون توقف.. أريد أن أضحك بصوت عالٍ كوني منتشي الآن.. لا أريد الاستيقاظ من هذا الشعور الرائع.. رائحة غريبة تنتشر في الأرجاء.. ترى ما مصدرها؟ أهو كحول جراحي؟ على العموم سأحاول الوقوف وتفقد المكان..))

كنت أكلم نفسي باستمرار، ولا أتذكر حتى أين أتواجد أو ماذا حدث لي مؤخراً، يبدو أني تحت تأثير مخدر قويٍّ، تم حقني به بعدما فقدت الوعي داخل السيارة.

حاولت الوقوف لأجد نفسي مكبلاً بالأغلال من ساقاي كالبهائم. سعيت جاهدا التخلص منها ولكن دون جدوى، قمت بتفحص الغرفة فوجدتها باردة جدا ورطبة، ذات بلاطات بيضاء وسوداء، اجتهدت في الزحف ببطء إلى المنفذ الوحيد المقابل لي، والذي كان باباً حديدياً يحوي فتحة صغيرة في منتصفه، ألقيت نظرة من خلالها لأجد شخصين مسلحين يحرسان المكان، لذا عدت أدراجي يائساً، وبدأت البكاء والنحيب حزناً على الوضع الحرج الذي أنا عليه.

مضى على تواجدي في تلك الغرفة أسبوعاً كاملاً، كانوا يطعمونني فيها الحليب والجبن والخبز الأسمر، وبعضا من الماء يقدم لي في أوقات محددة فقط، حتى أنّ المرحاض كان يجاورني، ما زاد من حدة الروائح الكريهة، فقد افتقدت نور الشمس في هذه الغرفة المغلقة، وبدأت الاعتياد على الظلام والبرد، وعلى حالتي الجديدة كيائس من الحياة، إلى أن أتى ذلك اليوم النحس، حين دخل الغرفة أربعة أشخاص مقنعين، قاموا بحقني مجددا بذلك المخدر الذي لا أزال أجهل اسمه، فخارت قواي و استسلمت للنوم الذي لم أرتح فيه قط، نظرًا للكم الهائل من الكوابيس التي راودتني بهذا المكان، جاعلة من حياتي جحيم حقيقي.

حين استفقت هذه المرة وجدت نفسي مرتديا بذلة كلاسيكية نظيفة، مرشوشة بعطر ساحر الرائحة، كانت بجانبي مرآة، فلم أتردد النظر إليها، لأجد شعري قد حُلق وصُفف، ولحيتي هُذبت بطريقة عصرية، صفعت نفسي لأستفيق ظنًّا مني أني لازلت أحلم، ولكنّ الأمر برمته يبدو حقيقة، تساءلت في نفسي مستغرباً عن الغاية من تحسين شكلي بمثل هذه الطريقة؟ فلم أجد الجواب الشافي، فأخذت أفكر في المفاجآت التالية التي يخبئها لي المستقبل، وبينما ذهني شارد وعقلي سارح، عاد المقنعون مجددا، وقاموا بتقييدي ونقلي إلى مكان جديد.

بعد عدة دقائق من المشي، وصلنا إلى المكان المنشود. فُكت عنّي القيود، وتم وضعي داخل أستوديو تصويري عصري، به كاميرا رقمية وأدوات غريبة تبدو الغاية منها التعذيب، فقد كان الحائط الجانبي مليئا سياطا سوداء وكمامات جلدية، إضافة إلى سيوف وخناجر ومنشار آلي ملقى على الأرضية، أخذت أتفحص ذلك المكان بحذر وخوف، حتى دخلت من ورائي امرأة فاتنة الجسد، ترتدي بذلة سوداء وقناع أرنب أبيض اللون، تحمل بين يديها ميكروفون، وتقف مقابلة لكاميرا الفيديو وكأنها مذيعة تلفزيونية متنكرة. لم يدم الوقت طويلا، حتى بدأت هذه المرأة التكلم باللغة الإنجليزية، واسترسلت تقول:

((سيداتي وسادتي شركة Dead and gone المخفية ترحب بتواجدكم معنا.. وتشكركم على متابعتنا مجددا.. في عرضنا الأسبوعي على الديب ويب.. أنبئكم زبائننا الكرام أنّه قد تم تلبية طلبكم حسب الاختيارات التي صوتتم لها، وها هو ذا ضيفنا اليوم السيد "**قيصر رزقي**".. شاب جزائري من تلك البلاد الواقعة في شمال إفريقيا.. أظنكم تعرفونها.. هو الآن في السادس والعشرين من العمر.. من مواليد برج الجدي.. طول قامته ثلاثة وسبعون إنشًا.. أما وزنه فمائة وخمسة وأربعون باوندًا.. شعره أسود قاتم.. أما بشرته فبيضاء قوقازية.. ديانته الإسلام.. المسكين يؤمن أن ربه سينقذه من هذا المأزق.. ولكنّه لا يعلم أن الحياة أتت صدفة ولا وجود لخالق فيها. ضيفنا "**قيصر**" كان عليك أن تقرأ كتاب وهم الإله للكاتب "ريتشارد دوكنز".. ولكن الوقت قد تأخر عليك.. فمشاهدونا الآن يترقبون العرض بشغف)).

بدأت دقات قلبي في الخفقان بسرعة، لحظة سماعي لهذه المقدمة الطويلة، فتضاربت الأفكار في رأسي، وازداد تدفق الأدرينالين بجسدي، ليظهر خوفي جليا أمام الحضور في القاعة، وخلف شاشات العالم أيضا، فقد أيقنت أخيرا بأني بطل عرض حي، يبث مباشرة من جنوب شرق آسيا.

اقتربت تلك الفتاة مني وبيدها شمعة كبيرة مشتعلة، وبدأت تقطر سائلها على وجهي.. ليبدأ في الاحتراق ببطء، فبكائي لم يشفع لي في هذا الموقف، وزيادة على ذلك فقد أرهبني صراخ المشاهدين في القاعة، حين هموا يصفقون ويتفاعلون مع قسوة المشهد، لحظة وقوفي يائسا أصارع الألم. في حين أخذت تلك المرأة تبتسم وتقول:

((يا سادة.. يا سادة.. على رسلكم.. فأنا لن أستطيع قراءة جميع رسائلكم على الشاشة إن استمررتم بالتعليق بهذا الشكل.. أعلم أن الأمر أثاركم ولكن المتعة الحقيقية لم تبدأ بعد.. دعوني أخبركم بأمر مهم.. فهذا الذي أمامكم ليس شمعا كما تظنون.. بل هو مستخلص شحم الخنزير! الذي لا يحبه المسلمون)).

لتتصاعد الصيحات داخل الأستوديو التصويري.. ثم وضعت المايكروفون جانبا.. وتابعت تعذيبي والضحك لا يغادر فاها.

أحسست وكأني فأر تجارب في مختبر عالم أحياء مجنون.. ولحسن حظي لم يدم ذلك المشهد طويلا.. فتنفست الصعداء بمجرد انتهائه.. وانتقال تلك المقنعة إلى جهاز الحاسوب.. لترد على المشاهدين في الشات الجماعي للموقع الإلكتروني.. والذي زود بشاشة ضخمة مكنتني أنا نفسي بقراءة تلك الرسائل

الخبيثة.. والتي كان معظمها أوامر وطلبات بتعذيبي أكثر فأكثر.. وبمضي دقيقتين استدارت لي تلك المرأة مشيرة بإصبعها إلى الجانب الأيمن للشاشة.. ثم قالت:

((أتلاحظ يا "**قيصر**".. يبدو أنّ زبوننا المدعو daisy01010110 لن يرحمك الليلة، فطلبه مثير للاهتمام حقاً، فضلا عن كونه دفع المبلغ المطلوب للتنفيذ.. لذا ترقب ما سأفعله بك)).

رغم عذابي وألمي لما يحصل لي الآن، إلا أنّني لم أفقد خاصية الحدس عندي، فيبدو وكأني قد تعرفت على هوية تلك الفتاة المقنعة، فرغم تغييرها لصوتها ومحاولتها إخفاء معالم وجهها، غير أنها لم تفلح في اختيار الكلمات المناسبة، فمناداتي بـ"عزيزي" قد كشفها، وأنا مصمم على أنّها نفسها الشيطانة "بيتروفا"، وقد قام بفضحها تفاصيل جسدها المثير أيضاً، ولكنتها الإنجليزية الشبيهة بتلك التي يتحدث بها الروس.

التزمت الصمت وفضلت التريث قبل كشف هويتها للمشاهدين، وتابعت مراقبتها وهي تقوم بفتح محفظة بلاستيكية ملقاة على الأرض، مستخرجة منها سكيناً كبيرًا مسنناً، ثم قالت لي:

((إنّه وقت الدماء أيها الطفل المدلّل!)).

في هذه اللحظة أيقنت موتي لا محالة، فخرت على ركبتايّ وترجيتها باسمها الحقيقي أن تبقي على حياتي، فردت عليّ قائلة:

((أيّها النذل.. لقد عجلت في التعرف علي.. لذا سأعجل في إنهاء حياتك!)).

زدت الطين بله بإفشائي لهويتها، فقدت تغيرت حالتها فجأة من الهدوء إلى الغضب الجامح، ثم اتّجهت نحوي وعيناها تتقدان شررًا، فاستغليت فرصة اقترابها مني، وقمت بشدها من شعرها، وأزلت عنها ذلك القناع وأنا أقول:

(("كريستينا بيتروفا" أيّتها الشيطانة.. ألا تعلمين ما معنى الإنسانية؟ أنا بشر مثلك.. ألم أكن صديقك؟ ارحميني ما ذنبي.. ارحميني.. لا أريد الموت هنا لا أريد.. لا أريد..!))

لتدفعني على الأرض وتعيد ارتداء قناعها، فقد كانت محظوظة جدا تلك اللحظة، كون وجهها لم يظهر بوضوح أمام عدسات الكاميرا. خصوصا أن أفراد الشرطة عادة ما يلجون إلى هكذا مواقع إلكترونية بنية التعرف على أصحابها والقبض عليهم.

لم تجلب لي دموعي ومقاومتي سوى ضحك واستهتار الحضور، فقد كنت أطمع في تحريك مشاعرهم الإنسانية علهم يرأفون بي، ولكن على عكس

توقعاتي فقد جعلوا مني بطل مسرحية هزلية لا نهاية لها. اقتربت مني "كريستينا" ثم أمسكت بي جيدا، وانتزعت عني القميص الجديد الذي ألبسوني إياه منذ قليل، ليظهر ساعدي الأيسر لها، وبحركة خاطفة منها جرّت عليا السكين المسنن دون أي رحمة، حتى ظهر عظم مرفقي من اللحم وصاحبه صرير مزعج، انتشرت معه رشاشات من الدماء على الأرضية، فانتفضت من حرارة الألم وانتابني شعور بالدوار والغثيان لبشاعة المشهد، فتلاشت قدرتي في الوقوف على قدماي، لأهوي ساقطا على الأرض والرعشة تسري بجسدي مسلما أمري لخالقي.

***

((رائحة غريبة أستنشقها الآن.. تبدو مألوفة لي نوعا ما، فيا ترى ما مصدرها! آه تذكرت ربما تكون رائحة دكان جارنا "معاذ" الجزار.. أظنّها رائحة الدماء واللحوم.. رائحة المذبح الذي يمارس فيه عمله اليومي .. لماذا أستنشقها الآن؟ أشعر بالدوار.. أشعر بالغثيان.. تتملكني رغبة كبيرة في التقيؤ.. هل أنا أهذي؟))

كنت فاقدا لوعي تماما، قبل أن أفتح عينيّ، وأستفيق على بكاء طفلة صغيرة تكوى بالسجائر، في أماكن حساسة من جسدها، وقد تم حلق كامل رأسها،

ولولا الأقراط اللاّمعة على أذنيها، والفستان الأبيض الذي على جسدها لظننتها صبيًّا. كنت ملقى في ركن الغرفة مصدوما لما أرى.

((يا إلهي ما هذا العالم المجنون.. أهي ضحية أخرى مثلي؟ ولكنّها صغيرة جدًا.. فما ذنبها لتعذب بهذا الشكل؟ وما نوع الخطأ الذي يعاقب بسببه الأطفال بهذه الوحشية؟ أين والداها؟ هل تم بيعها مثلي؟))

أسئلة كثيرة دارت في رأسي ولم أفلح بعد في الإجابة عنها.

أحسست بألم شديد يسيطر على ساعدي الأيسر، فقمت لتفحصه. وبمجرد النظر إليه ارتعدت فرائسي، وتجمدت الدماء في عروقي هلعاً لهول المشهد. فلا أثر لذراعي بعد الآن.. لقد اختفت.. لقد قُطعت وأُلقيت خارجاً، تماماً كما تُرمى اللحوم المعفنة، أما الجرح فقد تم إيقاف نزيفه، ولُف مكانه بضمادات بيضاء. فقدت السيطرة على نفسي وصرخت بأعلى صوتي قائلا:

((أين.. أين.. أين اختفت ذراعي؟ هل قطعتم لي ذراعي أيّها المجرمون! "كريستينا" أيّتها البائسة.. يا حثالة الأرض، لن أغفر لك ما أصابني منك أبدا؟ لن أغفر لك أيّتها الشّيطانة، يا عديمة الإحساس، يا متحجرة القلب، يا نك رة،ياااا..)).

ألقيت الشتيمة ولم أتوقف عند هذا الحد، رغم الألم الذي ينهش لحمي نهشاً، بل عمدت أيضاً على إثارة الفوضى والضوضاء داخل الأستوديو التصويري، فاستفزوني بصمتهم وبرودة أعصابهم ولم يعيروني أي اهتمام، لأفقد عزيمتي تدريجيا وأستسلم للبكاء والنحيب، عائدا خائباً إلى ركن الغرفة أنتظر دوري كبطل في المشهد التالي.

((هاااي.. يا هذا! هاااي.. أتسمعني؟ أنت هو "**قيصر**" صحيح؟))

قطع عني خلوتي صوت رجل غريب ينادي باسمي، فتملكني الخوف من أن يؤذني، فحقيقة لم أعد أرتاح لأيّ شخص في هذا المكان، لم أعد أثق حتى في نفسي التي اقتادتني إلى هذا الجحيم.

تشجعت ورفعت رأسي للنظر إليه، لأجده في مثل طولي تقريباً، يرتدي سروال جينز وحذاءً رياضياً، مع قبعة مخروطية سوداء تنتهي بنهاية حادة، كان يضع قناع أرنب غريب على وجهه، فقد سبق لي وأن شاهدت هذا القناع في أحد المسلسلات الكرتونية لـ"والت ديزني"، لم أكن أعي ما الغاية من استخدام هذا النوع من التمويه، ولكنّه أضفى مزيدا من الرعب على شخصية هذا الرجل.

لم أرتح أبداً لهذا الشخص، فاخترت الصمت على الرد عليه، ليضيف قائلا:

((أعتذر عما بدر منا تجاهك.. لقد جئت لأهنئك شخصيًا.. كون عقابك قد انتهى رسميًا.. فأنا متأسف على الذي حل بذراعك.. فالقوانين تطبق على الجميع ودون نقاش.. مع العلم أننا لم نتركك تعاني هكذا.. فقد تكفل طبيبنا بعلاج جراحك.. وحقنك بمسكن ممتاز سيكبح عنك الألم لفترة وجيزة)).

((أرجوك أخلي سبيلي يا سيدي...))

تودت إليه على أن يطلق سراحي، فقاطعني متجاهلاً كلامي، وتابع حديثه قائلا:

((أخبرني؟ هل تشعر بالجوع بعد كل هذه المعاناة؟ لا تخجل إذا أردت أن تأكل فلا تتردد في مناداتي، فعلى عكس البقية أنا هنا شخص مختلف.. ويمكنك أن تثق بي)). ثم تحرك بخطوات بطيئة وكأنّه ينتظر ردي عليه. حقيقة فلم آكل شيئا صحيا منذ أيام، وإحساسي بالجوع قد زاد ما جعلني أتحامق مجددا وأطلب منه أن يناولني خبزا وجبنا، ليعود أدراجه لي ويقول:

((أيعقل أن مثابرًا مثلك يطلب مثل هذا الأكل الرخيص؟ أرى أن تتناول بعضا من اللحم الطازج والخضروات، فهذا سيكون مفيدا لالتئام جراحك بسرعة. فما رأيك؟))

لم يكن من خيار أمامي سوى الإذعان له، فقلت له بصوت حزين:

((حسنا.. أريد قليلا منه لو سمحت!))

ليسألني مجددا:

((أتحبه مشويا على الجمر أم مطهياً داخل القدر؟ أتحب شرائح الدجاج أم لحم الضأن؟))

فأجبته بأن يقدم لي لحم الضأن المشوي، وكلي استغراب مما يحدث لي الآن، ففكرة أني أخدع مجددا لم تغادر ذهني بعد.. فما سر هذه المعاملة الطيبة يا ترى؟

بعد حوالي نصف ساعة من طلبي لوجبة العشاء، دخل القاعة مهرجان نحيلان يرتديان جوارب طويلة وملونة، يبدو مظهرهما مرعباً للغاية، ألقيا عليّ التحية ثم أحضرا طاولة وثلاثة كراسي خشبية، ووضعا عليها صحنين اثنين، أحدهما مليء بالخضروات الطازجة، والآخر مزين بأعمدة اللحم المشوي والذي يبدو لذيذا حقاً، ساعداني على القيام، ثم أجلساني في المنتصف، فيما فضلا هما أن يجلسا على يمين وعلى يسار الطاولة.

تقدم أحدهما إلى الكاميرا الرقمية وشغلها ثم عاد مكانه، فبدأت علامات التوتر تظهر على وجهي، بعد يقيني بأن هذا المشهد سيظهر أمام الملأ، كوني

مررت بنفس التجربة ظهر اليوم، ولكني سآكل وفقط فلا داعي لقلقي مجددا، فقد تمكن مني الجوع، ولن أرضى لنفسي تضييع فرصة تناول طبق الشواء الساخن واللذيذ.

أدخل المهرج الذي على يميني يده في جيبه، واستخرج علبة مثقوبة تحمل مادة بيضاء كالملح، في حين قام زميله الجالس على يساري باستخراجي علبة مشابهة لها، تحمل مادة بنية يبدو وكأنّها بهارات قويّة، فرائحتها قد وجدت طريقها إلى أنفي فور فتحها.

تقدما الاثنان من كاميرا الفيديو وقاما بإظهار محتوى العلبتين للمشاهدين، ثم عادا لي وطلبا مني اختيار علبة واحدة، فخفت أن تكون تلك المادة البيضاء سما، فاخترت المادة البنية والتي يبدو على رائحتها أنّها بهارات قويّة.

قام المهرج الجالس على يساري بنثر جزء منها على طبق الشواء، وطلب مني الأكل وعدم الخوف. فهذا آخر مشهد لي في هذا المكان، ولا شيء يدعو إلى القلق بعد الآن.

***

أطفأت المصابيح وأشعلت محلها الشموع على الطاولة، ثم شغلت موسيقى سيمفونية لطالما أحببتها، تعود للموسيقار الشهير.. الفرنسي المتوفى بالجزائر:

"Camille Saint-Saëns"، والـتي تحمـل اســم: Danse Macabre. لم أكن أعي ما المغزى من اختيار هذه المعزوفة، فكأنّهم قد اجتهدوا في جمع معلومات شخصية عني هذه الفترة، فتلك الموسيقى من أفضل ما سمعت طيلة حياتي.

وقد بدا لي جليا بأنّهم يسعون للتخفيف من توتري، عن طريق شغل بالي بأشياء أحبها، فلطالما آمنت بقدرة الموسيقى في الوصول إلى ركيزتا الإنسان، وهما القلب والعقل.

حملت الشوكة باليد الوحيدة المتبقية لي، وبدأت بتناول الشواء والخضروات، وكانت أوّل قضمة لي من ذلك اللحم قد أشعرتني بالغرابة، فطعمه لا يبدو كطعم الضأن إطلاقا أيعقل أنهم يطعمونني لحم الخنزير؟ حتى لونه بدَا باهتا قليلا!

لم أكن في وضع يسمح لي بالتنازل عن الطعام، فأكلت عمودين كاملين من ذلك اللحم المشوي، والذي اقترب مذاقه من مذاق لحم البقر نصف الطازج الذي تتخلله بعض من الحلاوة، كان رخوًا جدًا ولزجاً رغم نضجه، وبمجرد قضمه تنسال الدماء منه، فأصبت بالتخمة مبكرا، بعد أن انتشرت رائحة

غريبة داخل تجويف فمي أشعرتني بالغثيان، تحملت غرابة ذلك الطعم إلا أنّي لم أصمد طويلاً، فتقيأت على المائدة.

لتعلو حالة هستيرية من الضحك بين المقنعين، ولتنشط نافذة الدردشة في الشاشة العملاقة التي فوق الكاميرا. لم أعلم ما المقصود من هذا، ولكن يبدو وكأنّني أمتع الحضور وأصنع لهم جوًّا من المرح مقابل معاناتي.

وقف المهرجان يرقصان على أنغام تلك السيمفونية الغامضة، ويحركان أرجلهما وأيديهما بطريقة مرعبة، وكأنّ الألحان من تحركهما كعرائس الكاراكوز. في هذه الأثناء ظهر لي ذلك الرجل الغريب من جديد، حيث ابتسم لي وقال:

((مبروووك.. مبروك يا "**قيصر**" فقد تحملت ذلك الطعم واستطعت إنهاء عمودين كاملين من الشواء.. يبدو أنّك قاسي القلب حتى تستطيع التهام لحم ذراعك بكل هذه الشراهة!))

وانفجر كالمجنون يقهقه ضاحكا، بينما أخذتني الرجفة لما سمعت، ثم تابع كلامه:

((حتى الحظ لم يحالفك اليوم.. فقد اخترت علبة البهارات حقا ولكنّها ممزوجة بمخدر خطير يدعى LSD.. ولكن مهلا لا تقلق فقد خصصنا لك كمية صغيرة جدا بالمايكرو غرام... وهذا حتى لا تنتهي حياتك)).

التفت إلى المشاهدين بعد أن أعلمني بأمر المخدر وقال:

((زبائننا في كل أنحاء العلم.. ادفعوا.. نمتعكم.. سجلوا طلباتكم في موقعنا الإلكتروني حول ما تودون منا أن نفعله بهذا البائس.. وسنحققها بمجرد تأكدنا من تحويلكم للمبلغ المطلوب إلى حسابنا.. وأحيطكم علما بأنّ العرض لم ينتهِ بعد.. فهذا المسكين سيرقص لنا رقصة الفيلة الوردية.. ويفقد صوابه تماما تحت تأثير هذا المخدر القويِّ..

ولمن لا يعرفه فاسمه العلمي الكامل هو:

ثنائي إيثيل أميد حمض الليسرجيك.. أظنُّ مهمتي في الشرح قد انتهت الآن.. أتمنى مشاهدة طيبة للجميع)).

ثم اقترب مني وهمس في أذني قائلا:

((أتذكر تلك الرسالة التي تلقيتها في حاسوب "كريستينا" بمقاطعة "كيبك"؟ أنا هو صاحبها.. رئيس منظّمة القتلة المأجورين التي تجاوزت حدودك معها.. وصديقك الجديد "الأرنب".. يمكنك مناداتي بلقب: "بيل الأرنب")).

كنت أسمع ما يقول جيدًا، ولكنّي لا أعي إن كان هذا حلما أم يقظة، أيعقل أن مفعول المخدر قد وجد سبيله إلى عقلي، أم أن حالة الاكتئاب والهلع التي استوطنت قلبي وكياني قد سببت لي هذا الصداع! لم أدم طويلا على تلك الحالة حتى سقطت طريح الأرض.

((ما هذا المكان المزدحم؟ ما سبب الفوضى التي غزت الشوارع؟.. هذا المكان.. وكأنّه الحي الذي أسكن به؟ ترى ما الذي حدث؟ كيف عدت إلى هنا وبسرعة؟

يا ربي.. كيف عادت لي ذراعي؟ أكاد أجن حقا! ولكن لا وقت للتفكير الآن علي بالإسراع إلى منزلي علني أجد والديَّ هناك ينتظراني.. يا لهول ما أرى.. ما هذا الدمار؟ أين اختفى منزلي؟ أين هو منزلي؟ أمي.. أبي.. أمااااه.. أمااااه!))

جلس "بيل" على أريكته واضعا رجلا على الأخرى حاملا للميكروفون وهو يقول:

((يبدو أن العرض قد طال قليلا يا زبائننا الأوفياء.. رغم أنّي لم أفهم ما يقوله.. ولكن واضح من أنه ينادي على أمه.. لتأتي وتقدم له بعضا من الحليب،

فصغيرنا جائع الليلة.. بعدما استفاق أخيرا من نومه فاعذرونا على التأخير.. وصفقوا لراقصكم الطفل المجنون ابن الفيلة الوردية)).

يبدو أن صوت "بيل" هو أوّل ما سمعته بعد استيقاظي من ذلك الكابوس اللعين.

كانت الحرارة تتصاعد من جسدي، وعرق غزير ينساب من مسامات جلدي، لعابي يسيل من فمي وكأنّني كلب مسعور، قلبي ينبض بقوة، ولكن رغم هذا فأنا منتشي الآن، ومفعول LSD قد سيطر على عقلي تماماً.

((أشعر بالفرح والحبور وأيضا الثقة وسأقوم بعقاب هؤلاء المجرمين الذين قاموا بقطع يدي. سأقف فيهم خطيبًا وأهددهم الآن، سأستمتع بقتلهم، وآكلهم الواحد تلو الآخر، فرغم كل شيء فاللحم البشري لا يبدو سيء الطعم)).

وقفت أتمايل يمينا وشمالا كالسكران، وكأنّني أرقص دون أنغام، ثم صحت فيهم:

((هاي أيتها الحشرات الصغيرة النافقة...))

- أتعلمون بأني سيدكم الجديد!

- لقد قطعتم ذراعي الأيسر وقد حان الوقت لأقطع عنكم أنفاسكم، فأنا من صنعكم وأنا من يمحي وجودكم.. تباً لكم لماذا تضحكون؟))

بدأ رأسي يؤلمني لحظة سخريتهم مني، وشعرت بأني أقل وزنا من الريشة، ولم أتذكر كثيرا ما حصل معي من أحداث، ولكن تذكرت آخر جملة قلتها قبل أن أسقط أرضا من جديد، فقد جثوت على ركبتاي وأطلقت العنان لصوتي قائلا:

((هلمي يا نسمة الهواء وخذيني بعيدا عن هذا العالم المجنون، خذيني إلى أمي العزيزة فقد اشتقت لرائحتها الزكية، خذيني إلى المطار، خذيني إلى "كندا" إلى مطعمي وعملي، خذوني فقلبي يشتعل بالنار...))

***

يقود القدر من يتبعه، ويجر من يقاومه.

"بلوتارخ"

الفصل السابع: فوضى في بانكوك

((أطعم ضيفنا جيدا، وألبسه بذلة تليق به فقد أبلى بلاءً حسنا ليلة أمس، أما أنا فعلي مكافأته، بنقله إلى منظمة Zero في منطقة21 soi ladprao))

((ولكن ذراعه لم تشفَ بعد يا سيدي!))

((منذ متى تتدخل في قراراتي يا هذا؟ تحرك الآن ونفذ الأمر بسرعة!))

استفقت على هذا الحديث الذي دار بين "بيل الأرنب" وأحد أتباعه، وألم فقداني لساعدي لا يغيب عني لحظة، لقد نجحوا فعلاً في تطهير الجرح وعلاجه، ولكن لن ينجحوا أبدا في إعادة هذه الذراع كما كانت عليه أوّل مرة، لذا لم أجد من سبيل أمامي سوى التحلّي بالصبر والإيمان بقدرة الله.

تبادرت إلى ذهني أسئلة كثيرة عن الوجهة التي سيقتادونني إليها، وما ستفعله بي المنظمة التالية! فقد وضعوا عصابة على عينيَّ ليمنعوا عني الرؤية، وتم إرغامي على ركوب إحدى السيارات الخاصة، والتي غادرت بي فورًا.

عندما وصلنا المكان المنشود، تم إخراجي من السيارة، ودعوتي للتوجه معهم إلى عمارة قديمة معزولة، بعد أن نزعوا عني عصابة العينين. وعند إدخالي إليها أجلسوني على الأرض وقدموا لي بعضا من الأكل.

كنت قد أخبرتهم بامتناعي عن تناول أيّ وجبة تحتوي على اللحوم، فتجربتي السابقة قد لقنتني درسا هاما في ضرورة التأكد من مصادر الطعام، لذا قطعت عهدا على نفسي بأن أغير نظامي الغذائي إلى النباتي في حالة ما تم إطلاق سراحي، لكنّهم طمأنوني بأنهم قد أحضروا لي البطاطا المقلية وعلبة من العصير البارد، فرغم أن حالتي لا تسمح بالأكل، نتيجة ما تعرضت له من تعذيب وإهانة أمام الملايين من البشر حول العالم، فقد كنت على يقين بأني إذا أردت النجاة علي الاعتناء بجسدي وبحيويته، حتى لا أضعف وأهلك في هذا البلد الآسيوي الذي لا أملك عنه أي معلومات.

أنهيت وجبتي واستبشرت خيرا بأنّ هذه العمارة ستكون آخر محطة لي قبل إطلاق سراحي. كان المكان مظلما نوعا ما، ورائحة الأسمدة الحيوانية تنتشر منه،

لوهلة ظننت نفسي في مزرعة، فكيف لمكان قذر كهذا يصعب التنفس فيه، أن يكون مركزا لأفراد هذه العصابة، وبينما كنت غارقا في التفكير، دخل العمارة رجلان متنكران في رداء غريب، كالذي يرتدى في عيد "الهالوين"، أحدهما يحمل كاميرا رقمية في رقبته، والآخر يمسك بطفلتين صغيرتين ويقتادهما إلى ركن البناية.

كانت علامات الخوف ظاهرة على وجهيهما البريئين، أما الرجلان فقد بدا واضحاً أنهما يخططان لفعل شيء مريب، فقد أحضر الأوّل كرسيًّا خشبياً عتيقاً وجلس عليه، ثم وضع الطفلتين على قدميه في وضعية مخلة بالحياء، وقام المقنع الآخر بالتقاط صور عديدة لهم في مواضع مختلفة تقشعر لها الأبدان.

وبينما أشاهد مستغرباً ذلك العرض غير الأخلاقي، حتى سمعت صوت محرك شاحنة قد توقف أمام العمارة التي أتواجد بها، طلبت الإذن من الرجُلين اللذين يحرسانني أن ألقي نظرة عليها، فوافقا وقاما بمرافقتي إلى هناك، لأفاجأ بكونها سيارة إسعاف كبيرة جدا.. بل ضخمة! يقودها شيخ آسيوي طاعن في السن.

أشار ذلك الشيخ بيده إلى الحارسين اللذين يرافقانني، وكأنه يطلب منهما أن يأتيا بي إليه، وبالفعل فقد قاما فورا بسحبي إلى يمين السيارة، ثم تقدما نحوه ليتبادلا أطراف الحديث، وبعد لحظات من الحوار فتح الحارسان البوابة الخلفية لسيارة الإسعاف، وقاما بإدخالي هناك ثم أغلقا الباب وانصرفا، في حين انطلقت بي تلك المركبة الضخمة مسرعة إلى وجهة مجهولة.

كانت الخلفية مظلمة وباردة، ولكن سرعان ما أنيرت المصابيح واختفت العتمة، فكشف لي المكان عن سرير أبيض قد أحيطت به معدات طبية متطورة من كل جانب، وفتاتان مقنعتان جالستان على طرفيه، فقد تبين لي من لباسهما أنهما جراحتان، ألقيت لهما التحية فردا عليّ بالمثل، ثم تقدمت نحوي إحداهما بعد أن نزعت قناع الأرنب الذي على وجهها وهمست في أذني بلطف قائلة:

((من فضلك يا سيد "**قيصر**" استلقي هنا على السرير.. فقد تلقينا أوامر بمعالجة جروح ذراعك التي قطعت.. ثم تعويضك بأخرى اصطناعية.. كمكافأة لك من الرئيس على صمودك وتقديمك لعرض ممتع)).

لقد كانت شابة سمراء شديدة الحسن والجمال، ولطفها معي جعلني أنفذ أوامرها دون أي تأخير، فقمت من مكاني وتمددت على ظهري، ولكنّها طلبت مني أن أغير وضعيتي وأنام على بطني، استغربت الأمر ولكن لم أجد داعيا لرفض طلبها، لذا نفذته في صمت. لتقوم بتكبيلي مع السرير من ذراعي اليمنى وقدماي بعد أن نزعت عني قميصي، في حين باغتتني زميلتها بحقني في رقبتي، فاستسلمت في دقائق معدودة للنعاس والنوم العميق.

***

((رأسي يؤلمني ... أشعر بألم شديد أسفل ظهري.. أين أنا الآن؟ رائحة الكحول والمطهرات الطبية قد أصابتني بحكة شديدة داخل أنفي.. لا أعلم ما يحدث من حولي.. فرغم فتحي عينيَّ.. لا تزال الرؤية ضبابية وغير واضحة.. مهلا! أظن أني تذكرت الآن.. فقد كنت أخضع لعملية جراحية.. فما نتائجها يا ترى؟ سأحاول أن أستفسر وضعي الصحي من طرف الجراحتين!))

كانت هذه بداية استفاقتي من تأثير المخدر الطبي، وها قد تمكنت من الرؤية بوضوح الآن، فاستدرت إلى الجانب الأيسر من السرير، لأجد تلك الممرضة تبتسم لي وهي تقول:

((دعني أسألك أيّها الرجل المسكين)).

فأجبتها متلعثما من تأثير المخدر الطبي:

((تفضلي أيها الممرضة الشابة)).

فقالت لي:

((إن صادف ووجدت شخصا مريضا على حافة الموت.. يحتاج إلى مساعدتك.. فهل تنقذه حتى وإن كلفك الأمر غالياً؟))

((بالتأكيد.. فنحن المسلمون نؤمن بأنّ من أحيا نفسا في الأرض.. فكأنما أحيا النّاس جميعاً)).

نزعت نظاراتها الطبية ثم اقتربت مني وقالت:

((كلام جميل يا سيد **قيصر**.. لن أخفي إعجابي بذكائك وسرعة بديهتك.. فما عساني أن أفعل سوى تهنئتك.. كونك ساهمت في إنقاذ روح كادت أن تزهق.. لا بل وتعديت ذلك بإنقاذك للناس جميعا كما ادعيت...))

أثار ردها الغريب شيئا من الريبة بداخلي، فقاطعتها قائلا:

((ماذا تقصدين؟ وضحي كلامك من فضلك؟))

((ماذا أقصد؟ سأكون جدية معك هذه المرة، لذا أنصت لي جيدا.. عزيزي المسكين.. لقد قمنا باستئصال كليتك اليمنى، وهذا لإنقاذ شخص يواجه الموت

حالياً، بينما أنت تنعم بالحياة، فعضو منك سيعيش في جسد غيرك، ألا يبدو الأمر مثيرا ورائعاً؟))

نزل الخبر عليّ كالصاعقة، شعرت وكأني سيارة عتيقة يتم التخلص منها تدريجيا، ببيع قطعها الواحدة تلو الأخرى. بدأت الدموع تنهمر على خداي، واسودَّ قلبي حقدا وضغينة على ما شهده من أحداث، فقد جعلوني أثق بهم في عدة مناسبات، فيما تم التلاعب بي وبجسدي مرات ومرات، لأغدو الآن كأضحية، تنتظر موعد ذبحها لتشبع نزوات أنفس مريضة، تستمد قوتها وتجني أرباحها من معاناة الأبرياء.

مرت قرابة عشرون ساعة وأنا داخل سيارة الإسعاف المزيفة، دعوني أطلق عليها اسم سيارة "إبليس"، وقد بدا واضحاً بأن مفعول المخدر قد شارف على الزوال، فبقيت على السرير مستلقياً، أستعيد ذكريات الماضي، وأدعو الله أن يقتص لي من هؤلاء المجرمين وينقذني من هذا المأزق، فيما اكتفت الجراحتان الشريرتان بمراقبتي في صمت.

بقيت على تلك الحال للحظات إلى أن أتت ساعة الاستجابة أخيرا، فبينما أفكر في طريقة فعالة للهروب من منظمة zero الشيطانية، والمختصة في بيع

الأعضاء البشرية، قطعت عني خلوتي أبواق سيارات الشرطة، فيبدو وكأنهم يتتبعون مركبة "إبليس" التي احتجزت داخلها، أكاد لا أصدق.. أظن أنّ الله أخيرا قد استجاب لدعواتي وأرسل لي مخلصي.

بقيت أترقب ما سيحدث جراء هذه المطاردة، حتى توقفت الشاحنة بعد أن كانت تسير بسرعة كبيرة وكادت أن تنقلب بنا، حيث شعرت بها تهز من الجهة الخلفية بشكل جنوني، فيما تعالت صيحات الفتاتين خوفا من الموت، في هذه الأثناء سمعنا تبادلا لإطلاق النار، ومناوشات كلامية كبيرة تدور في الخارج، كانت دقات قلبي تتزايد في كل دقيقة تمر عليّ في هذا الوضع المزري، إلى غاية أن فتح الباب الخلفي أخيرًا، ودخل إلى السيارة ثلاثة من رجال الشرطة يوجهون مسدساتهم نحونا، قاموا بالإمساك بالفتاتين، فيما عمد زميلهم بتخليصي من ذلك السرير اللعين، ونقلي على جناح السرعة في سيارة إسعاف الحكومة التايلاندية، كان هذا أجمل شعور أحس به منذ ولادتي، فقد استعدت أنفاسي أخيرًا، و عاد لي الأمل في الحياة مجددًا.

***

تم وضعي في أحد المستشفيات الحكومية الراقية، وقد مر على تواجدي به حوالي الأسبوعين، تناوب أفراد الشرطة خلال هذه الفترة على مساءلتي عدة

مرات أسبوعيا، وقد تم العناية بي أيضا، بتسخيرهم كامل العتاد الطبي لخدمتي، وبتوفيرهم جميع سبل الراحة الممكنة لاستعادتي عافيتي.

لم أتردد أبدًا في تقديم يد العون لعناصر الشرطة التايلاندية، فالمعلومات التي بحوزتي، ستمكنهم من القبض على معظم أفراد المنظمتين، والذي يبدو أنهما وجهان لعملة واحدة، كونهم يرتدون نفس الأقنعة رغم اختلاف نشاطاتهم، فوصفي الدقيق لملامح "كريستينا بيتروفا" قد ساعد الرسام المتعاقد مع الشرطة في الوصول إلى شكلها بسهولة، ومقابل هذا فقد منعت من الحديث حول القضية لأي شخص كان، وتم إعلامي بأني سأخرج هذه الأمسية من المستشفى، وسأبقى تحت الرقابة إلى غاية الاتصال بالحكومة الكندية لتوفير جميع الإجراءات الضرورية اللازمة لإعادتي إلى هناك. فرحت فرحًا لا يوصف بعد سماعي لهذا الخبر، وبدأت أخطط مبكرا في العودة إلى وطني الجزائر، مباشرة بعد وصولي إلى الأراضي الكندية.

حل المساء سريعا، حيث تم نقلي في سيارة الشرطة إلى أحد المنازل الجبلية، والتي تم إيجارها لي خصيصا فترة إقامتي هنا في "بانكوك"، وقد خصصت لي مجموعة كبيرة من دوريات الشرطة، المتناوبة على مراقبتي وحمايتي من كل

هجمة مفاجئة قد تصدر من أحد المنظمتين الإجراميتين، انتقامًا مني على المعلومات الكثيرة التي سربتها عنهم.

رغم كون البيت الذي أقطن به حاليًا نظيفًا ومرتباً، إلا أني لم أستطع التأقلم فيه، خصوصًا بعد منعي من التجوال كثيرًا في الأرجاء، وإلزامي بالمكوث داخل غرفتي، وعدم الخروج لشراء حاجياتي، كونها ستأتي لي في الحين، بمجرد اتصالي هاتفيا بالسيد "فريد شاينين"، وهو ضابط الشرطة المكلف رفقة أعوانه بحمايتي ومراقبتي، والذي يتقن جيدا تكلم اللغة الإنجليزية، مما سيسهل لي التعامل معه، والشيء الجيد أنه قد وضع تحت خدمتي الشخصية تلك الفترة.

شعرت بضجر مفاجئ، ولم يكن بيدي من حيلة سوى الاتصال بالسيد "فريد"، وطلبي منه أن يرسل لي جهاز كمبيوتر محمول مزود بشبكة أنترنت لأستمتع بتصفح بعض المواقع الثقافية، وبالفعل فقد تم توفير طلبي هذا، ولكنهم حجبوا عني مواقع التواصل الاجتماعي ما جعلني أتذمر.

استغليت فرصت تواجدي وحيدًا، وقررت أن أكتب على برنامج "وورد" قصتي وتجربتي الشخصية مع عالم الانترنت الخفي، ومدى خطورة وقوة

منظماته السريّة، التي تسعى للانتقام من كل شخص تخاله نفسه قادرًا على اللعب معهم، حتى وإن كان قرصان أنترنت مثلي.

مرت الأيام بسرعة خاطفة قمت خلالها بتدوين كل اللحظات التي عايشتها في "كندا" و"تايلاند"، وبين الحين والآخر يصادف أن أتذكر حدثا معينا كنت قد نسيته، وأعود لأضيفه ضمن حكايتي الغريبة حول هذا العالم الغامض.

بلغني أن أفراد الشرطة التايلاندية قد نجحوا أخيرا في القبض على "كريستينا"، وهي تنوي العودة إلى "كندا" بجواز سفرها المزيف، بعدما وشيت بها وفضحت ألاعيبها، وقد تم التفطن أيضا لحيلتها في إخفاء الأموال داخل حذائها ذي الكعب العالي، وهكذا تضاعفت التهم ضدها، ما سيجعلها تضيع شبابها في السجن، فإن نجت من الإعدام، ستحظى بعقوبة المؤبد والأعمال الشاقة، وهذا أمر محتمل.

خلال فترة تدويني لقصتي، اختلطت مشاعري فيها بين الفرح والحزن والألم، فتارة أضحك عند استرجاعي لذكرياتي مع "كيفن أبو كرش"، وتارة أخرى أبكي كوني فاقدا لعضوين هامين في جسمي، مقابل المتعة الشخصية لأشخاص مرضى نفسيًا، قد نال منهم الجبن وجعلهم يدفعون أموالا طائلة،

مقابل إيذاء أبناء جلدتهم من البشر، متسترين بجرائمهم وراء شاشات الحاسوب.

***

يبدو الجو حارا جدا في الخارج، وأشعة الشّمس الحارقة تمنع على الناس التجوال والخروج لقضاء مصالحهم الشخصية، قمت من مكاني ببطء وفتحت نافذة الغرفة رغم سخونة الطقس، وهذا فقط لأستمتع بصوت حشرة "السيكادا" المميز والذي أعاد لي ذكريات الماضي حين كنت صبيًا يافعا، أخرج في حر الصيف لأصطاد طائر الحسون من الجبال، فغالباً ما أتوقف للحظات وأستمع إلى ألحان تلك الحشرة الساحرة، محاولاً إيجادها دون أن أفلح. ها أنا الآن أنظر إليها وجها لوجه ولأوّل مرة، وهي تهز كالجرس خلف غصن أحد الأشجار المجاورة للغرفة، أمعنت النظر إليها وحادثتها قائلا:

((آه... يا سيكادا... آه... لو أحكي لك أوجاعي لاعتزلت العزف إلى الأبد)).

بعد عدة دقائق أمضيتها كالأحمق أحادث تلك الحشرة المجنحة، عدت إلى مكاني وفتحت الحاسوب الذي أحضره لي الضابط فريد، ثم توجهت مباشرة إلى الملف الذي يحوي قصتي التي أنهيت كتابتها مؤخرا، أعدت تفقدها والتمعن في مضمونها جيدا، أضفت إليها ما دار بيني وبين السيكادا من حديث، ثم

فتحت بريدي الإلكتروني وأرسلت ما كتبت يداي إلى صديقة غالية، لم أحتك بها كثيرا، ولكن جمعتني معها رحلة طويلة، أظهرت لي خلالها ما بداخلها من طيبة وحسن، فكما يقال إن شاركت شخصا ما السفر، فستعرف جانبه المتستر إن كان جيدًا أم سيئًا.

أرسلت لها أيضا صورة "كريستينا" خارجة من سيارتها وتهب بدخول "الكازينو"، كتذكار مني إليها، وكنت قد التقطها لها في مقاطعة "كيبك"، فترة جمعي للمعلومات عن تلك المنظمة، وجاء في رسالتي على الهوتميل التالي:

((صديقتي الغالية.. لن أذكر لك اسمي الآن طمعا في إثارة فضولك، ولكنك بمجرد إتمام قراءتك لحكايتي.. والتي أرفقتها إليك بملف "وورد" ستتعرفين عليّ.. وداعاً!))

المجهول 19

بينما أنهمك بتفحص بعض المواقع العلمية، للقضاء على الملل الذي أحاط بي هنا، رن جرس المنزل بشكل جنوني دون توقف، فقمت من مكاني وفتحت الباب، لأفاجأ بالضابط "فريد" يبتسم لي وينبئني بانتهاء الإجراءات الضرورية للسفر، وإمكانية عودتي إلى "كندا" قريباً.

لقد أثار الخبر الفرحة في قلبي، وعلى عكس ما كان أفراد الشرطة يظنون بأني متحمس في العودة إلى "كيبك"، كنت حقيقة أحضر نفسي للعودة إلى وطني الغالي "الجزائر"، ومن المثير أنهم سمحوا لي أخيرا بأن أستخدم الهاتف لأكلم أهلي، وبالطبع فلقد قفزت على الجهاز وكتبت رقم والدتي الذي حفظته عن ظهر قلب قبل سفري إلى "كندا" واتصلت بها فورا.

بعد رنين دائب... صوت متعب وحزين يرد:

((ألو! من معي؟))

أجبت بحماس:

((أماه !أمااااه ! هذا أنا ابنك الغالي!))

((ابني أنا؟ "**قيصر**"!)) ثم انفجرت بالبكاء...

لم أتمالك نفسي فأغلقت الخط، وبكيت لدرجة أن الضابط "فريد" شاركنا حزننا أيضاً بعد أن انهالت دموعه على خديه، فرغم أنّه لم يفهم لهجتنا إلا أنّه قد استوعب الموقف، وأحس بفراق الأم وغربة الوطن، يبدو وكأنّه يشفق علي نوعا ما، لما بلغني من مهانة وإصابات لن تشفى أبدا!

بعد لحظات عاودت الاتصال بوالدتي، واعتذرت لها عن غلق الخط في وجهها، وبررت فعلتي هذه بكوني لا أرغب في الظهور ضعيفا أمامها وأنا أبكي، وزففت لها خبر عودتي إلى أرض الوطن خلال أسبوع تقريباً، فاستبشرت خيرا لي وفرحت فرحا كبيرًا.

سألتني أيضا عن السبب الذي معني من الاتصال بهم طوال هذه الفترة، فاضطررت للكذب عليها، وأخبرتها بأني أعمل ليلا نهارا لأجمع المال، لذا لم أكن أملك ما يسعني من الوقت لأتصل، اِعتبرَت حجتي هذه واهية وغير مقنعة، وعاتبتني كثيرا على هذا الكلام، ثم ناولت أبي الخط، فتكلمت معه أيضًا، وقد أعرب عن اشتياقه لي كثيرا، وأبلغني سلام إخوتي الذين ينتظرون عودتي ويترقبونها كل يوم.

بعد هذه المكالمة قمت بتجهيز حقائبي وأغراضي الشخصية استعدادا للسفر، فتحت جهاز الكمبيوتر المحمول وتفحصت بريد الايميل الخاص بي، فلم أجد أي رد يذكر من تلك الصديقة.

لم اكترث كثيرا للأمر، طالما أشعر بانشراح كبير في صدري، وكأن حملا كبيرا قد أزحته عن كاهلي، والغريب هو أني سعيد رغم فقداني اللذة في الحياة، فلن تشغل الأموال بالي بعد اليوم، فما يهمني الآن هو العيش في بلدي بين عائلتي،

فليس هناك أفضل من هذا، شكرا لك "كريستينا" شكرا لك أيّها "الأرنب" شكرا لكما أيّها "المهرجان"، فلقد نجحتم في جعلي أحس بنكهة الحياة الحقيقية، لقد نجحتم في توعيتي بمفهوم القناعة الذي كنت أجهله، شكرا جزيلا لكم ...شكرا أذاقكم الله الويلات السبع.

ها أنا ذا أدون خبر عودتي إلى كندا الذي زفه لي السيد "فريد"، وأرفقه للملف الذي يحوي قصتي، وأعاود إرساله مجددا للصديقة المجهولة، 1،2،3... إرسال.

***

((عزيزتي "إيلين" ها أنا اكتب لك أغرب قصة قد تمر عليك في حياتك، آسف لتوريطك معي في شؤوني الخاصة ويا لها من شؤون، عصابة قتلة مأجورين وأخرى لبيع الأعضاء البشرية، يد مقطوعة وكلية معروضة للبيع، عروض سادية تذاع مباشرة على شبكات الانترنت المظلم، إيذاء للنفس البشرية وتعدي على براءة الطفولة، سفريات عالمية، وثائق مزورة وتهريب للأموال... قد تبدو قصتي صعبة التصديق ولكنها حقيقية، أنا الآن شخص وحيد فاقد لذراعه وكليته، كجريح حرب يشارف على الموت في بلاد الغربة، فلولا تدخل أفراد الشرطة التايلاندية بفضل الله، وقيامهم بتوقيف سيارة الإسعاف الضخمة، لأصبحت الآن في عداد الموتى، فقد بلغني بأنّ سائقها

يتعامل مع هذه العصابة في الخفاء، ويستخدم مهنته الشريفة في أغراض شخصية دنيئة مقابل مبالغ مالية ضخمة، وقد راود الشك زملاءه في المستشفى، وقاموا بتقديم بلاغ ضده، حيث صدر أمر بتعقبه، وشاءت الأقدار أن يقبض عليه متلبسا في الجرم الذي رحت ضحيته أنا، ليتم إنقاذي أخيرًا من قبضة هؤلاء الأوغاد، فكما يقال محض صدفة خير من ألف ميعاد... صديقتي "إيلين" إن صادف وحصل لي أي مكروه قبل عودتي إلى "كندا"، فسأكون ممتنا إن نشرتي قصتي على الصحيفة التي تعملين بها، على شكل أجزاء متسلسلة لتكون عبرة لكل من تخاله نفسه دخول الانترنت المظلم، والتلاعب مع أفراد المافيا والإجرام في العالم ... سلام)).

كانت هذه الأسطر أوّل ما قرأت في بريدي الإلكتروني الشهر المنصرم، كانت مقدمة ملهمة لي لأطلع على مضمون تلك القصة، التي اجتهد في كتابتها صديقي الجزائري "**قيصر**".

أدعى "إيلين سليم" وأنا امرأة أردنية مطلقة أقطن حاليا في "لندن" بمقاطعة "اونتاريو"، تشاركني السكن ابنتي الوحيدة "سوزان" ذات العشر سنوات. أعتبر أول صديقة لـ"**قيصر**" في "كندا"، حيث تعرفت عليه داخل المطار، وقمت بنقله معي إلى مدينة "لندن". يبدو لي يا عزيزي "**قيصر**" أن القصة لم تنتهِ

بعد، ولابد من إتمامها قبل نشرها، لذا أرجو منك أن تسامحني على تطفلي وتدخلي في حكايتك، وتجرئي على إضافة لمساتي الخاصة عليها، كون الجزء الأهم لم يذكر بعد. ويا أسفاه على اختفائك المفاجئ أيّها الغالي، فلم أحظ حتى بفرصة التعرف عليك أكثر، أرجو أن تعود إلينا سالما معافى.

بعد قراءتي لحكاية **قيصر** والتي أتممتها في يومها، انتقلت مباشرة للقاء العم "رقيب"، فالوصول له لم يكن صعباً مطلقاً، بصفتنا سكان لنفس المدينة، إضافة لكون مطعمه ذا سمعة ومكانة مرموقة في المنطقة. حيث عرفته بنفسي وأخبرته بكل ما جرى من أحداث تقشعر لها الأبدان، المسكين لم يستطع إخفاء دموعه عني، وسألني إن كنت مهتمة في السفر معه إلى مطعمه في "كيبك"، عسى أن يفيدنا أحد أصدقائه هناك بأي معلومة عنه، ولما لا فيمكن لنا أن نجده متخفيا هناك، فقد ذكر لنا في قصته بأنّه عائد إلى "كندا" خلال فترة وجيزة. لذا قمت باصطحاب ابنتي إلى جارتي كي تعتني بها فترة سفري، ثم عدت إلى العم وأجبته بالموافقة.

وقف العم "رقيب" أمام سيارته وأشعل سيجارة مالبورو، ثم زفر بأعلى صوته وقال:

((كيف حدث له كل هذا دون أن يعلمني؟ بالطبع فقد كلمني طاقم مطعمي في كيبك بأنه أخذ إجازة ليزور أهله ثم يعود.. ولم أنتبه أبدا بأنه سافر إلى "تايلاند" نتيجة الابتزاز والتهديد.. فلو لم يخفِ عني الحقيقة لتصرفت بوساطتي.. وربما أنقذته من الورطة التي هو فيها.. يا له من أحمق!))

لم أنطق بنت شفى، كونه يبدو عصبي المزاج، ولا نية لي في إشعال نيران ألمه بزيادة الطين بلة. بعد هنيهة أكمل العم سيجارته وأشار لي برأسه للركوب، لتكون وجهتنا مباشرة محطة القطارات السريعة، الوسيلة الأكثر راحة لنقلنا إلى "كيبك" بحثا عن صديقنا الضائع. كان الجو متقلباً منبئاً بقدوم فصل الخريف، رياح قوية تعصف تتخللها قطرات مطر، و بين الحين و الآخر يتصل العم "رقيب" بطاقم المطعم و يسألهم إن عاد إليهم "**قيصر**" أم لا، أما أنا فكنت أدعو الله أن يحفظه من أي سوء، وبعد ساعات طويلة من السفر وصلنا أخيرا إلى "كيبك"، تجاهلنا التعب وعناء الرحلة، وتوجهنا مباشرة إلى المطعم المنشود، وكان "أبو كرش" أول من قابلنا هناك، فهو ذلك الشاب الكندي الطيب ذو العشرون ربيعًا، الذي لطالما اعتبر "**قيصر**" أخا أكبر له، فهو يبادله كل الحب والاحترام والتقدير، قدم لنا الرقم الهاتفي لعائلة "**قيصر**" وقد بدا الحزن جليًا عليه، رغم جهله لجل الأحداث التي وقعت هناك في "تايلاند"، فقد فضلت أنا

والعم "رقيب" عدم إفشاء أسرار هذا الموضوع الشائك، حتى لا نجلب البلبلة وسط جموع الناس وخصوصا الصحافة، والتي يمكن لها أن تكون سبباً في وصول الخبر إلى عائلته "بالجزائر"، وبالتالي حصول ما لا يحمد عقباه. ولكن هذا لن يمنعني عن نشر عمل "**قيصر**" الذي سأكمله قريبا. فكوني كاتبة صحفية قد ساعدني كثيرا في

التعامل مع مثل هذه المواضيع الشائكة بسلاسة.

***

الرجل الشرير كالفحمة: إذا لم تحرقك سودتك.

"مثل روماني"

الفصل الثامن: رائحة الموت

مقاطعة كيبك – كندا.. الجمعة 20 نوفمبر 2015

الرعد يدوي خارجا، والسّماء تتلبد بالغيوم السوداء، وميض البرق يضيء مدينة كيبك معلنا الغضب على فقدان "**قيصر**". مضى على تواجدنا هنا قرابة الأسبوع ولا خبر جديد يذكر، لذا قررنا الاتّصال بأفراد الشرطة الكندية لاطلاعهم على الموضوع، علهم وعساهم يفيدوننا بأي معلومة صحيحة تزيح عنا علامات الحيرة، لذا زرنا أقرب مقر لهم صباح اليوم الموالي، وقد وجهونا بدورهم إلى مركز الشرطة الرئيسي لمدينة "كيبك"، أين سلمنا لهم هوياتنا، وقمنا بملء مجموعة استمارات قدمت لنا هناك، ثم ناولناهم الوثائق التي تثبت

علاقتنا بـ"**قيصر**"، وكذا ما احتواه بريد الايميل الخاص بي من محتويات، والتي أرسلت لي من طرف صديقي المسكين.

لم يدم انتظارنا طويلا حتى تقدم نحونا محافظ الشرطة بخطوات ثابتة وهو يقول:

((سأطلعكم على خبر مهم، والتزموا عدم بوحه لأحد)).

أجابه العم رقيب بثقة:

((لا عليك يا سيدي سنكون أمناء على كلامك، تفضل بالحديث من فضلك!))

تابع المحافظ حديثه:

((حسنا.. ادخلوا مكتبي وانتظروني هناك فسأعود حالا)).

ثم بادر بالخروج ليتكلم قليلا مع زملاءه، وكأنّه يدعوهم إلى ضرورة تأمين المكان وعدم السماح لأيٍّ كان بالدخول، وبعد هنيهة عاد إلينا مُغلقاً باب مكتبه. أشار لنا بالجلوس ثم قال:

((من المؤسف إخباركم بأنّ صديقكم قد تعرض للقتل بأبشع الطرق التي يمكن تصورها، وذلك قبل وصوله إلى المطار بدقائق، فقد طعن بسكين على

مستوى الصدر والبطن، كما أضرمت النار في جسده بعد أن اقتلعت عيناه، ولحسن الحظ فإن أفراد الشرطة التايلاندية قد عادت وأخمدت النيران من الجثة، وتمكنت من القبض على الفاعلين، اللذين لم يكونا سوى فردين من أحد العصابات المتاجرة بالأعضاء البشرية، والتي تمارس نشاطها على مستوى جنوب شرق آسيا، ومن المصادفة الغريبة أن قدومكم جاء في الموعد المحدد، فيمكنكم أن تحضروا جنازته باعتباره صديقًا لكم، كون جثمانه قد أرسلت اليوم فقط إلى "الجزائر"، وقد تم إبلاغ عائلته أنّ موته كان في حادث سير. لذا أرجو منكم عدم نشر ما دار بيننا من حديث هذه الفترة، فالصحافة هنا لا ترحم أبدًا، وفيما يخص التعويضات المالية فستصل أسرة الفقيد بعد اتّخاذ الإجراءات القانونية اللاّزمة، أما الآن فيمكنكم الانصراف واحرصوا بأن لا تعودوا إلى هنا مجددا. فلن أطلعكم بأي أمر جديد.. مع السلامة)).

أنهى محافظ الشرطة كلامه، فخيم سكون قاتل أرجاء المكتب، بعد أن نزل علينا ذلك الخبر كالصاعقة، لم أجد من داعٍ للبقاء في هكذا مكان، لذا قررت مساعدة العم "رقيب" على الوقوف لإخراجه من هنا، بعد أن أخذتني الشفقة على حاله، فعيونه قد اغرورقت بالدموع، والتعب ظهر جليا على وجهه. وما إن غادرنا مركز الشرطة حتى استسلمت بدوري للبكاء، فتظاهري بالقوة لم يدم

طويلاً، رغم غضبي الشديد لما لحق بصديقي، إلا أن هذا لن يعيده حيا مجددا، فحادثة قتله قد أكدت لي بأن الحياة سخيفة حقا، يموت فيها الشاب الطيب الحالم، ويحيا فيها ذاك الخبيث الظالم.

توليت القيادة عن العم رقيب، وتركته يختلي بنفسه على يميني داخل السيارة، فبدأ يدخن السيجارة تلو الأخرى، في محاولة منه لتجاوز هذا الخبر المحزن، أردت أن أخفف عنه قليلاً فبادرت بالحديث قائلة ((لطالما كان **قيصر** شخصا طيباً يا عمي، فقد أظهر لي في أوّل لقاء لي به، حبّه الكبير في تكوين أسرة، وتحصيل مبلغ من المال يضمن له عيشة كريمة)).

استدار العم لي ورمقني بنظرة غريبة، والتي لم تدم طويلاً حتى أغشي عليه، فقمت فورا بنقله إلى أقرب مستشفى ممكن، لقد كان فاقدا الوعي تماما والدموع ترقد تحت جفونه السمراء، يبدو لي واضحا تعلقه الكبير بـ"**قيصر**"، فالعم "رقيب" لم يحظ بأولاد بعد، لذا فالشعور الذي يكنه للمرحوم يحاكي شعور الأب لابنه.

أمضيت المساء بطوله داخل المستشفى، نزلت فقط لتناول وجبة العشاء، ثم عدت بحلول الساعة الثامنة والنصف ليلا، لأجد العم قد استفاق أخيرا من نومه، وقد كان أوّل أمر يقوم به بعد رؤيته لي، هو استخراجه لجواله وإجراءه

مكالمة هاتفية مع أحد معاونيه، طالباً منه أن يحضر له مبلغا ماليًا كبيرًا، بعد أن زوده بالعنوان الكامل للمستشفى، ثم همس في أذني بصوت حزين قائلا:

((ستأخذين هذا المبلغ معك إلى الجزائر.. واحرصي على تقديمه لأهل المرحوم كإعانة مني لهم.. وهذا عند أدائك واجب العزاء.. واتركي مصاريف سفرك على عاتقي.. فهل هذا مفهوم يا بنيتي؟))

((سأقوم بذلك يا عمي.. أمانتك ستصل إلى أهلها في موعدها بإذن الله.. ولكن السفر سيكون على عاتقي أنا.. فوضعي المادي ميسور والحمد لله)).

كان هذا ردي، والذي تقبله العم "رقيب" بابتسامة لطيفة تخفي وراءها حزنا عميقا.

***

تبسة – الجزائر.. الاثنين 23 نوفمبر 2015

وصلت أخيرًا إلى الجزائر وتحديدا إلى المدينة الأثرية "تبسة"، والتي لا تختلف كثيرا عن موطني الأم "الأردن"، فتواجدي بها قد أعاد لي ذكريات الماضي، حين كنت أمضي الصيف أنا وابنتي في بلدي العزيز، بين الأهل والأصحاب.

عقرب الساعة يشير إلى العاشرة صباحاً، يبدو الجو صحوًا ولطيفا، مما أضفى عليّ بعض من الهدوء والسّكينة التي كنت في حاجة ماسة لها، أما موعد الدفن فقد فآتني، كون رحلتي الجوية قد تم تأجيلها لساعات.

سألت بعض المارة في الطريق عن الحي الذي يقطن به السيد "**قيصر رزقي**" فدلوني عليه، وقد بدا واضحا كيف كانوا يرمقونني بنظرات استغراب واستهجان، فربما السبب يعزى إلى لباسي شبه المحتشم، فلم أكن أدري بأن التجمع السكني الذي أمر عليه مازالت تحكمه العادات والتقاليد والأعراف.

بعد مدة من السير اقتربت أخيرًا من منزل صديقي المتوفى، وقد شد أنظاري الجمع الغفير الذي حضر الجنازة، فالسيارات قد أغلقت الطريق وأعاقت حركة السير، والناس يتوافدون على البيت من كل ناحية، قمت وشققت طريقي بين هذا الجمع الغفير إلى أن وصلت أخيرًا إلى منزل المرحوم. كانت تلاوة القرآن تملأ المكان، وموائد الغداء مصفوفة في مستودع كبير خصص للحضور، وفي هذه اللحظة لفت انتباهي شيخ بهي الطلعة يجلس على كرسي بلاستيكي أمام الباب، سألت عنه بعض الحضور فقالوا لي بأنّه الحاج "أحمد" والد المرحوم "**قيصر**"، تقدمت قليلا من ذلك الشيخ وسلمت عليه معلنة عن أسفي الكبير لما حل بابنه، فأرجع ذلك إلى قضاء الله وقدره، وسألني عن موطني

فلهجتي قد بدت له مشرقية نوعا ما، فأجبته بأنني "أردنية" وتأسفت له إن لم يفهمني جيدا، كوني لست بارعة جدا في التحدث باللغة العربية، ثم عرفته على نفسي وقصصت عليه علاقتي بابنه، وكيف صادف أن تعرفت عليه أوّل مرة. فلا أخفي حقيقة كونه شيخاً طيبًّا.. حكيمًا ومتخلقًا. وقد فاجأني حين طلب مني الجلوس في الغرفة المجاورة، ليطرح عليّ سؤالا لطالما حيره، فرحبت بالفكرة ودخلت، ليقوم بتقديمي لمجموعة من الأشخاص كانوا يحتسون القهوة، يتوسطهم الأخ الأكبر لـ"**قيصر**"، وقد بدا لي واضحا مقدار الشبه الكبير بينه وبين صديقي المرحوم.

كان السكون سيد المكان فالكل يتألم في صمت، ولكن الشيخ أحمد قطع عنا هدوءنا بتوجيه لي سؤالاً وجيها، حين قال:

((سيدتي "إيلين" أنا لا أعلم أي نوع من حوادث السير التي قد تؤدي إلى قطع يد أبني واقتلاع عينيه أيضا؟ ألا يبدو لك الأمر غريباً؟))

وقفت عاجزة أمام ذكاء الحاج "أحمد" الذي لا تخفى عنه خافية، ثم أجبته قائلة:

((يجب أن تعلم يا حاج أن الحادث كان مؤلما جدا.. ومن الطبيعي أن تصاب عيناه نتيجة احتراقه.. وأن تقطع يده بعد احتكاكها بصفيحة معدنية.. فلولا تدخل أفراد الشرطة مبكرا.. لتفحمت جثته الآن.. ولما وصلنا لدفنه بطريقة لائقة)).

فرد علي بأعين حزينة:

((حسنا يا بنيتي.. لندع أمر القضية على الله.. أما الآن فاذهبي إلى جناح النساء لتناول وجبة الغداء.. ثم استلقي لتنامي.. فأنت مرهقة من عناء السفر)).

قبل ذهابي للأكل قمت بتقديم المبلغ المالي لوالد المرحوم "**قيصر**"، إلا أنّه أبى أن يمسكه، ورفضه رفضا قاطعًا، ثم طلب مني شكر العم "رقيب" على تصرفه الطيب، ودعوته لزيارة الجزائر.

قمت من مكاني هذا محرجة من الموقف الذي وضعت نفسي به، ومن طريقة كذبي على شيخ وقور مثله، فلم يكن باليد من حيلة، سوى إخفاء الحقيقة المؤلمة عن أهله، خصوصا في هذه الأيام الشداد، ورغم هذا فأنا واثقة بأن الحاج أحمد سيبلغ اليوم الذي سيعرف فيه حقيقة ما حصل لابنه "**قيصر**"،

وهذا بعد تنفيذي لوصيته ونشر حكايته للعامة، حكاية شاب حالم سحبه عالم رقمي إلى الموت دون أي رحمة أو شفقة.

***

مرّ شهر على عودتي إلى "أونتاريو"، ولكني لم أطوي صفحة وفاة صديقي بعد، فلا يزال أمامي أمر مهم علي فعله، وهو نشر قصته في الصحيفة، حتى يسلم الكثيرون من تلك المنظمات المسمومة، والتي تنشط على مستوى الجانب المظلم من الانترنت، ولكن قبل هذا كان علي عرضها على مدقق لغوي، حتى ينظر في الأحداث التي كتبتها مؤخرًا، ويصحح الأخطاء اللغوية والنحوية التي وقعت بها، فقد كنت أنوي أن أنشر كتابًا بالعربية حول أحداث القصة، ثم أعيد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية قبل نشرها في الصحيفة الأجنبية التي أعمل بها، لذا وضعت إعلانا على شبكة الانترنت يحمل عنواني ورقم هاتفي، أطلب فيه من أهل الخبرة في هذا المجال من المقيمين في "كندا"، أن يتدخلوا ويساعدوني في إنهاء اللمسات الأخيرة من هذه القصة. ثم غادرت المنزل بعد أن ودعت "سوزان"، والتي كانت لي نعم الابنة، فمنذ الأحداث الأخيرة التي وقعت، لم أحظ بفرصة واحدة لألهو معها.

اتجهت إلى عملي المعتاد في الصحيفة، ولم أكد أضع قدمي داخل مكتبي حتى تلقيت اتصالا من رقم مجهول، لم أتردد في الإجابة عنه...

((ألو.. ألو...)).

((ألو مرحبا.. ؟))

((من معي؟ من أنت؟))

((أنا أحد المهتمين بإعلانك الذي نشرته على شبكة الانترنت صباح اليوم، فهل لنا أن نلتقي لنتحدث قليلا بهذا الشأن؟))

((أكيد.. فحقيقة لم أكن أتوقع بأن يتم الأمر بكل هذه السرعة)).

((على العموم.. متى تريدين أن نلتقي؟))

((ما رأيك بمساء اليوم في منزلي؟))

((يبدو الأمر جيدا.. فأنا لست من "أونتاريو".. ومن الجيّد أن أجد مكانا هادئا أمارس فيه عملي، والذي لن يقتضي مني سوى ساعات قليلة وفقط)).

((حسنا إذا.. سأنتظرك هذا المساء أظن أن عنواني مدون على الإعلان.. حاول الاتصال بي عند وصولك.. وشكرا لك)).

((لا داعي للشكر.. مع السلامة)).

وقطع خط المكالمة... بعد انتهاء دوامي مساء ذلك اليوم، عدت مسرعة إلى البيت، تناولت أنا و"سوزان" بعضا من الطعام الذي أعدته جليسة الأطفال، ثم قمت إلى حديقة منزلي أنتظر وصول ذلك الغريب.. ومن الواضح أنّه فتى مواعيد، فلم يجعلني أنتظر كثيرًا حتى قدم.. وفور وصوله صافحته واستغربت ملامحه الطفولية، حيث بدا لي كابن السابعة عشر، رحبت به وعرفته بنفسي، فبادلني التحية وأخبرني بأن أناديه "خليل". أردت أن أعرف البلد الذي ينتمي إليه فأمتنع عن إجابتي. لم أضغط عليه واستخرجت حاسوبي المحمول الذي يحمل ملف القصة، ثم دعوته للجلوس والبدء في العمل.

فابتسم لي وقال:

((هل أستطيع أن اعرف ما نوع هذه القصة قبل أن أبدأ تدقيقها لغويا ونحويا؟))

فأجبته قائلة:

((وهل لي أن أعرف كيف لصبي يافع مثلك أن يعمل مدققا لغويًّا ولم ينه دراسته الثانوية بعد.. ألا أقول الصواب؟))

رد عليّ ببرودة:

((يبدو أنك تقولين الحقيقة.. فتكهنك في محله.. فأنا لم أدرس قط في الجامعة.. ولكن والدي أستاذ لغة الضاد.. وقد استفدت منه كثيرا.. وأعدك بأن عملي سيكون عظيما.. عليك أن تثقي بي)).

((حسنا.. سنرى ما بإمكانك فعله.. تفضل بالعمل)).

((ولكن سيدتي.. هل لي بطلب؟))

أجبته:

((تفضل يا ابني.. فكلي آذان صاغية)).

قام بفتح الحاسوب ثم استخرج نظاراته الطبية، ارتداها وقال لي:

((أنا جائع حقا، سأكون ممتنا إن تركتني أعمل وأحضرت لي سندوتشا شهيًّا، وعلبة من الصودا!))

أشرت له بالموافقة بما أن الطلب معقول، ثم ركبت سيارتي، وقدتها نحو أقرب مطعم في المنطقة، وتركته يزاول عمله الذي أتى من أجله. وبعد عودتي إليه فوجئت بحاسوبي وقد اختفى، وذلك الشاب لا أثر يذكر عليه، لقد تمت سرقتي.. يا إلهي.. أو هكذا كنت أظن.. فقبل أن أبرح مكاني، أطلت علي ابنتي

من المنزل وأخبرتني بأنّ ذلك الفتى ترك لها رسالة قبل أن يغادر المكان.. فوبختها على إهمالها أمر مراقبته، كون الحاسوب الذي سرقه يحتوي على القصة وبيانات عملي أيضا، وانتزعت الرسالة من يديها البريئتين بغضب، وقرأتها فورا.. حيث جاء فيها: ((يبدو بأنك تشبهين صديقك **قيصر** كثيرا.. ولكنك انفعالية نوعا ما.. سيدتي إيلين.. لقد كنت أراقبك طوال تلك الفترة.. وانتظرت فقط فرصة سانحة.. كي أرسل لك هذه الرسالة.. فالفتى الذي كان جليسك قبل قليل، ما هو إلا أحد أتباعي الجدد.. فإن وصلت إليك الرسالة فهذا يعني نجاحه في مهمته الأولى ونجاته من الموت.. استمعي لي جيدا لما سأقوله.. إن صادف ونشرت قصة صديقك.. فاعتبر نفسك هالكة لا محالة.. ولا تسأليني كيف علمت بأمرها.. لأنّ كل شيء بات واضحًا.. فإيميل "**قيصر**" كان ملكي منذ البداية.. ومن غبائه أنّه استخدم نفس البريد الإلكتروني الذي يتعامل به في الانترنت الخفي.. كي يرسل لك عن طريقه قصته تلك.. فالمسكين لم يكن يعلم أنّه قد قرصن ويخضع لمراقبتنا.. سيدتي "إيلين".. لا تقلقي لأمر حاسوبك سيعاد إلى منزلك خلال أيام.. بعد أن نستفيد من محتوياته.. مع السلامة)).

"بيل الأرنب"

سقطت على ركبتاي بمجرد قراءتي تلك الأسطر، شعرت وكأنّني الضحية التالية لتلك المنظمة، فقد ورطت نفسي معهم، بعد أن كنت بعيدة كل البعد عن قبضتهم. ساعدتني "سوزان" المرعوبة على الوقوف وعلامات الخوف بادية على وجهها الصغير، ثم سألتني عن مضمون هذه الرسالة، فلم أجد من وسيلة لتجاوز سؤالها سوى بالكذب عليها، حين قلت بأنّ الصحيفة التي أعمل بها ستغلق قريباً، لذا وجب علينا أن نجهز أنفسنا للسفر والعودة إلى "الأردن". قلت هذا كي لا أزيدها توترًا، فهي لا تزال طفلة صغيرة وغير مؤهلة بعد لمواجهة الواقع الأليم للحياة.

سألتني "سوزان" إن كنت أكذب عليها، فصرخت فيها وقلت:

((منذ متى وأنت تكذبينني أيّتها الساذجة؟ ألم أعلمك الاحترام من قبل؟))

ثم انصرفت ولم أشأ أن أطيل النقاش معها، كي لا يتطور الأمر إلى عراك.. ثم أخذت أكلم نفسي وأقول.. سأنشر روايته، سأنشرها بعد عودتي إلى "الأردن".. ولن أكترث لأمر هؤلاء الأنذال، فبين عائلتي وأهلي هناك.. لن يقدر أحد على لمسي أو إيذائي.. فلا داعي لأن أقلق بعد الآن.. فليذهبوا إلى الجحيم، فإن تماديت في الخوف منهم فلن أعيش وابنتي في سلام.. حتى وإن لم أنشر القصة..

سيلاحقونني ويستغلون ضعفي كامرأة وحيدة.. فعاجلا أم آجلا سأغدو ضحية لهم إن لم أغادر "كندا" بأسرع وقت ممكن، وأحتمي بظهر عائلتي وأصحابي في "الأردن")).

رفعت رأسي لأرى "سوزان" تحدق بي، أشرت لها بيدي.. فارتمت عليّ لتعانقني ودموعها الفضية تنساب ببطء من مقلتيها، أمسكتها واحتضنتها بقوة ثم طمأنتها بأن الأمور ستكون على ما يرام وسط الأهل والأصحاب.

صديقي الغالي "**قيصر**".. طلبك سيتحقق.. ثق بي...

"ميدوسا" لا تعرف اللهو.. ولكنّها تجيد القتل

***

تمت بحمد الله

"سوزان" احذري!!

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.